بذور الرشد

﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾

تفسير

سُورَةِ المُجَادلَة

ٱلۡمُيسَّر

Kitabook

• عنوان الكتاب: بذور الرشد، تفسير سورة المجادلة الميسر

• اسم المؤلف: د. محمد باباعمي

• الطبعة الأولى: 1440هـ - 2019م

• مقاس الكتاب: 125 × 190

• عدد الصفحات: 124

• ردمك: ISBN 978-9931-735-01-4

• الإيداع القانوني: السداسي الأول، 2019.

جميع الحقوق محفوظة

Copyright © 2019 Kitabook

Kitabook

Kitabook.net

Cité Ghaalloul, Bordj El Bahri, Alger Tél: 023.957.273 E-mail : Info@kitabook.net

بذور الرشد

تفسير
سورة المجادلة
الميسر

محمد باباعمي

كتابك
Kitabook

بسم الله الرحمن الرحيم

بنيَّة العمل

لا يعنيني في شيءٍ أن أفسِّر القرآن الكريم، فقد فسَّره علماء كرام؛
ولكني أحيا به ومعه، ثم أتخذه منطلقا لفكري، وصبغة لفعلي...
في رحلةِ العمر، وقد جاوزت الخمسين حِجّة؛
وهي مرحلة لا أرجو معها ولا بعدها إلَّا معية الله جَلَّجَلَالُهُ،
وصحبة كلامه، وكنف رحمته ورضاه ؛
أسأله سبحانه صلاح أمر أمَّتي، وأن يفرج عنها،
ويظهر دينه على سائر الأديان،
وأدعوه أن يصحح بكلامه الحكيم انحراف البشرية
الفكري والثقافي والحضاري،
وأن يسخرنا في إطار «نموذج الرشد»،
وبالاستعانة بـ«بذور الرشد»، لهذا السبيل،
أُشهدُ اللهَ أن ليس لي في الدنيا أمنية، إلا أن يجتمع عدد من العلماء،
فيجتهدون في علوم القرآن والتفسير، وعلوم المعنى والتنزيل؛ بعقل
جَمْعيٍّ، داخل مراكز بحثية دائمة؛ تنفق فيها أموال أثرياء الأمة،
وتسخر لها سلطة تحميها، وتجند لها سواعد وعقول
خيرة علماء هذه الأمة...
لنحقق بذلك نقلة حضارية توحيدية، نبتغي ذخرها عند الله تعالى
وما بين يدي القارئ الحبيب هو صورة لهذا المعنى،
وهو ظل لتلك النية، في انتظار تحقيق المطلوب، وبلوغ المرغوب
اللَّهُمَّ فاشهد، وبلغ المقصود

فريق العمل

- الأمانة والتنسيق: أ. جابر ناصر بوحجّام
- الإشراف الفني: أ. جابر موسى باباعمي
- التصميم والتنفيذ الفني: أ. ياسين بوشارب
- متابعة النشر والطباعة: أ. محمد الحاج سعيد
- المراجعون: د. محمد تمزغين
  أ. جابر ناصر بوحجّام

مقاصد تفسير الرشد

- تحبيب كلام الله تعالى للناس بعامَّة، وللناشئة والشباب بخاصَّة.
- عرضُ التفسير في صورةٍ غير منفِّرة لمن لم يألف مطالعة المجلدات.
- الوصول بكلام الله تعالى في حياتنا اليومية إلى حال التمثُّل والتناغم، بعيدا عن حال التكلف والانفصام.
- الخروج من دائرة الاختلاف في الأصول وتخطئة الآخر؛ إلى سعة المعاني المتفَق عليها، والتي تمثل أصل الدين ولبه؛ مع اعتبار الأوجه التي تؤشر إلى رحابة الدين، والتي تمثل الفروع، الجائز الاختلاف فيها.
- اعتماد مصادر التفسير كلِّها: من سنة نبوية، وآثارٍ عن الصحابة، وأقوال للتابعين، وتفسير مَن بعدهم عبر القرون؛ بعيدا عن جفاء القطيعة.
- الإسهام في تحذير الناس من الجرأة على كلام الله، والتقول على الله تعالى بما لم يقل.
- اعتبار اللغة مصدرا أساسًا لفهم الآية القرآنية؛ لكنه غير كافٍ لوحده.

- توظيف الجملة وحدة معيارية للفهم بديلا عن النص المسترسل الطويل؛ وذلك استفادة من منهج القرآن الكريم في اتخاذه الآية وحدة معيارية لبنية المعنى.
- استثارة العمل بعد فهم الآية القرآنية، ذلك أنَّ الغرض من كلام تعالى هو «الامتثال والتمثل» لا مجرد الحفظ والأداء والفهم.
- الدعوة إلى إعمال العقل الجماعي في إنجاز مشاريع لا حصر لها، من مداخل معرفية متجاوزة للتخصص، في فهم كلام الله تعالى.
- الدفاع عن الفهم المطيافي، الذي أسسنا له منذ عقدين من الزمان «المبني على اعتماد الموشور المعرفي، المكوَّن من عقول متباينة، وتخصُّصات مختلفة، وحالات ونماذج معرفية متعددة... للوصول إلى فهم ديناميكي حركي للآية القرآنية».
- تحريك مراحل تحويل المعلومة إلى سلوك، من خلال بذور الرشد: السؤال، الافتراض، الرؤية الكونية، القاعدة الكلية، الصورة الإدراكية، مخطط الفعل، الفعل الحضاري.

مقدمة

الله تعالى قريب من عباده، رحيمٌ بهم:

حين هرع نفرٌ من أحبار اليهود إلى سيدنا محمد ﷺ، وقالوا له: «**صِف لنا ربَّك، أقريبٌ فنناجيه، أم بعيدٌ فنناديه**» كانت صورةُ الإله عندهم باهتةً، ولقد شوَّهتها القرون، وتلاعبت بها الأهواء؛ حتى جعلوا له بنين وبنات، وأزواجًا، وَجِهَةً، وشكلاً، وندًّا... وغير ذلك مما لا يليق بالمعبود أن يكونه، ولا بالعابد أن يعتقده ويفعله.

القارئ لسورة المجادِلة يكاد «يخرُّ صعِقا» كمَا ﴿خَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ وهو يتبيَّن معاني قربَ الله تعالى من عباده، والاهتمامَ الشديد بأدقِّ تفاصيل حياتهم اليوميَّة؛ فلا هو يتركهم لأنفسهم، ولا هو يتصيَّد لهم أخطاءهم، ولا هو يحمِّلهم ما لا يحتملون؛ ولكنَّه سبحانه يُفسِح لهم فيعصون ويبتعدون، ثم يحنو عليهم، فيستغفرون ويعودون؛ وحين يعودون ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، ويزيدهم حبًّا إلى حبِّهم، ثم يَغمرهم برحماته ونعمائه وأفضاله.

هو سبحانه قريبٌ من امرأة جادلت الرسول ﷺ «في زوجها»، وقد سمع الله مناجاتها وهي

﴿تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ وهو قريب من كلِّ «مُظاهر» لزوجته، وهو مع ذلك يأمرُه ويدعوه سبحانه إلى أن يتوبَ، وأن يكفِّر عن ذنبه؛ إنَّه تعالى قريبٌ من الذين ﴿يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهم «لا يُعجزونه» في شيء؛ ثم إنه ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ...﴾، وما هو أدنى من ذلك وما هو أكثر؛ والقاعدة الكلية «أنه معكم أينما كنتم»، وهو سبحانه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ومن قُرب الله تعالى من عباده أنه يخبر رسوله بما يخفي الكفَّارُ والمنافقون، وهو يخبره جلَّ شأنَه عمَّا ﴿يَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ﴾ فيفضحُهم، ويسجِّل انحرافهم وضلالهم قرآنًا يُتلى إلى يوم الدين. والذين «اتخذوا حَلفهم وأيمانهم حِصنا» يريدون أن يخدعوا به رسول الله ﷺ والمؤمنين، الله سبحانه قريبٌ منهم، يكشف أمرهم، ويعرض على الناس زيغهم وفجورهم.

ومن عجبٍ أنَّ المنافقين يوم القيامة يحسبون - كما حسبوا في الدنيا - أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يعلم سرَّهم ونجواهم، ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾، وهذا أمرٌ لم يحدث بعدُ أوان نزول السورة الكريمة؛ ولكنه سيكون من أحوال يوم القيامة، مما أخبرنا به الله تعالى في محكم تنزيله قبل أن يقع؛ وهو دالٌّ على قربه من عباده إذا أساؤوا، كما هو قريب

منهم إذا أحسنوا، وهو سبحانه ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.

الإيمان: العلاقة التي لا تحول ولا تزول:

حين يولد الإنسان تحدَّد له جملة من العلاقات، أغلبها قد ورد في سورة المجادلة، منها: «علاقة الزوجية»، «علاقة الأمومة»، «العلاقة بالمساكين»، «العلاقة بمن يناجي»، «العلاقة في المجلس»، «العلاقة بالمتصدَّق عليهم من الفقراء»، «العلاقة بالمصلِّين»، «العلاقة بالمتزكى عليهم»، «العلاقة بالمتولَّى»، «العلاقة بالمتبرَّأ منه»، «العلاقة بالمال»، «العلاقة بالحزب»، «علاقة الأبوَّة»، و«البنوَّة»، و«الأخوَّة»، و«العشيرة»... وغيرها من العلاقات التي لا تُحصى، بين الإنسان وربِّه، وبينه وبين نفسه، وبينه وبين البشر جميعًا، ثم بينه وبين الكون؛ وهذه العلاقات ترسم حدود «الرؤية الكونية» للإنسان، وتحدِّد وجهته أإلى الله هي، أم إلى الشيطان؟.

ومهما كانت العلاقات بالأرحام حميميةً، مثل الأبوَّة والأمومة والزوجية أو العشيرة، فإنها ولا شكَّ إلى فناءٍ؛ فإمَّا أن تزول أنتَ، أو يزول مَن تربطك به آصرةٌ وخيطٌ من رحِم أو منفعةٍ، أو تزول تلك العلاقةُ لسبب مَا، والطرفان على قيد

الحياة؛ كأن يطلِّق الرجلُ امرأته، أو يهجُر الولد والدَه، أو يتنكَّر العشيرُ لعشيره؛ فهي إذن علاقات آيلة إلى زوال.

أمَّا العلاقة الوحيدة التي لا تنمحي، ولا تزول ولا تحول، فهي ما كان مِن «رابطة الإيمان»، سواء بيننا وبين رسول الله ﷺ، أو بين المؤمن والمؤمن؛ فإنَّ هذه باقيةٌ إلى يوم الدين؛ وهي يوم القيامة محفوظة ومصونة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ومن جهةٍ أخرى، فإنَّ الكافر مهما كان ظهيرًا لكافرٍ آخر في الدنيا، سيتخلَّى عنه يوم القيامة، وسيُسلمه للعذاب المهين، بل سيتخاصَم معه، ويتنكَّر له؛ حتى ولو كان أقرب الناس إليه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنَ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ...﴾، ﴿الأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ﴾، ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.

وأكبر علاقة تنفصم عُراها يوم القيامة في صفِّ حزب الشيطان، هي العلاقة بالشيطان الرجيمِ نفسه، الذي يتنكر لكلِّ من اتَّبع سبيله، ويعاديه العداءَ الشديد:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ ثم يختم كلامه بصلف ووقاحة كأن لم يكن هو الذي زين لهم الكفر: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أمَّا من ارتبط بالله تعالى، وتعلَّق برسوله عَلَيْهِ السَّلَامُ، وآخى المؤمنين في السرَّاء والضرَّاء، ثم منحهم الودَّ والحبَّ والنصرة؛ فإنه سيلقى الله تعالى يوم القيامة وهو يرفل في ظلالِ الرحمة، إلى جوار سيد الخلق محمد ﷺ، وإلى جوار المؤمنين: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ...﴾، ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا (25) إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا﴾.

المنهج التربوي، سورة المجادلة إمامًا:

من فاتحة سورة المجادلة إلى خاتمتها، نتنفَّس عبير الرحمة، ونستنشق عَبق الشفقة، ونطالع معاني التوبة والأوبة؛ ولكأنَّنا داخل قسمٍ كبيرٍ، فيه يلقِّن الأستاذُ تلميذه معاني الوفاء، ويحذره من أمارات الجفاء؛ يدعوه إلى ما يُصلح شأنه، ويحذِّره عمَّا يكدِّر باله؛ يرشده في أقواله وأفعاله، بل

وحتى في تركه وسكونه؛ فيبين له ما يرضي الله تعالى، وما يُسخطه سبحانه؛ ويشرِّح له ما يختلف في نفسه، وما يختلج في صدره؛ ويعالج نواياه وظنونه وشكوكه؛ حتى تكون فيما ينفع ولا يضرُّ، وفيما يُصلِح ولا يفسد.

بدايةً، يفسح الله تعالى لامرأة نكرةٍ أن «تجادل رسول الله ﷺ»، وليس من شأن الكبار في عالمنا اليوم أن يصغُوا للصغار؛ وهو مع ذلك يحنُو عليها، ويجلِس إليها، ويرفع إلى الله شكواها؛ ثم إنَّ معصيةَ الظهار، التي اقترفها زوجُ هذه المرأة الطاهرة، لم يتعامل معها رسول الله ﷺ، بأمرٍ من ربه الحكيم الكريم؛ بالغلظة والشدَّة؛ ولكنه فتح للرجل بابَ التوبة، ومكَّنه من روْح العودة إلى الحقِّ؛ وذلك شرطَ أن يكفِّر عن ذنبه، ويستغفر فيغفر الله له: ﴿ذَلِكَ لِتُومِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

ثم يربينا الله تعالى حتى في جزئية لطالما رسمت صورة اللقاء بين الثلاثة من الناس، والأربعة، والخمسة... وما هو أدنى من ذلك، وما هو أكثر؛ تلك الجزئية هي «التناجي» بين اثنين، وإغاظة الآخَر، والقصدُ إلى زرع معاني الحزن في قلبه؛ وحتى في هذه الحالة أطلعنا الله تعالى على خبايا القلوب، وعلى خفايا النفوس؛ ونهانا عن النجوى؛ وإن كان ولا بدَّ: فـ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾.

يربِّينا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويعلِّمنا رسولُه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، آدابَ «المجالس»؛ فيبيِّن ما يجب وما يحرُم، ما يُكره وما يستحبُّ؛ ويربط ذلك بجزاءٍ أخرويٍّ عظيمٍ ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾، وقبل ذلك بجائزة دنيوية سخيةٍ ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

ثم يربِّينا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على آدابِ «مناجاة» رسوله الحييِّ الكريم الحليم؛ الذي يستقبل الناس في نجوى يتعلَّمون فيها، ويستفتون، ويتصيَّدون بركات القُرب من رسول الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ يربي الله تعالى صحابته أن لا «يثقلوا عليه»، وأن «يقدِّموا بين يدي نجواه صدقةً، لا ينتفع هو بها ﷺ، وإنما ينتفع بها الفقراء والمساكين من المؤمنين».

ويربينا إلهنا الجليل الكريم في ارتباطنا بالناس، ويحدد خطوط التلاقي بيننا وبين المؤمنين المسلمين من جهة، وبيننا وبين الكفار والمنافقين من جهة أخرى؛ فيرسم الحدَّ الفاصل بين «الموالاة»، و«الإحسان»، و«الودّ»، و«الحبِّ»، و«المداراة» وما اقترب من هذه المعاني؛ سواءً في هذه السورة الكريمة، أم في سور أخرى من كتابه الحكيم.

غير أننا اليومَ، أبعدَ ما نكون عن هذه الحدود، وأشدَّ ما نكون قفزا على هذه المحارم؛ وقد اختلط على الناس أمرُ «الولاية والبراءة»؛ حتى صار الكافر هو المتولَّى، والمؤمن

هو المتبرَّأ منه؛ بل واختلطت على الناس صفات المؤمن والكافر، فدخلوا مساحاتٍ من العبثية لا آخرَ لها؛ وجاز أن نسمِّي هذا العصر «الزمن السائل»، كما هو المصطلح في نظرية «زيغمونت باومن»، والتي أودعها مؤلفاته: «الأزمنة السائلة»، و«الحبُّ السائل»، و«الحياة السائلة»... أو «الزمن الصعب» كما سماه «عبد الكريم بكار» في كتابه: «عصرنا والعيش في زمانه الصعب».

فرقُ الكمون بين الحضارة والهمجيَّة:

شتَّان بين حضارة تضبط العلاقة بين أفرادها، فتوثق الصلة بين الأزواج، وتحرص على صفاء الأنفُس، وعلى نقاء النسل، وعلى الفطرة السليمة أن لا تُخدش «من مثل ما ورد عن الظهار في سورة المجادلة» وهمجيةٍ بربرية تجاوزت حدَّ الكرامة، فراحت تُجيز أشكالاً من الزواج تصادِم الطبع السليم، والفطرة النقية، والقيم والدين؛ من مثل «الزواج المثلي»، الذي صارت العديدُ من الدول تقبَله، وتشرِّع له، وتتخذه حصانًا لركوب الحملات الانتخابية، ثم تدين من يَرفضه، وتُعاقب من يشجبه؛ واليوم في العالم أكثر من عشرين دولة قـنَّنته، كانت أولاها «هولندا» عام 2001م؛ وهذه الدول جميعُها من أوروبا والأمريكيتين، إضافة إلى جنوب إفريقيا.

ولقد أجريتْ دراسةٌ على 156 زوجًا من المثليين الذين ظلوا معاً لفترات تتراوح بين سنة و37 سنة. عنوان هذه الدراسة (الزوجان الرجال The Male Couple) وقد أجراها أخصائيان نفسيان من المثليين كانا هما أنفسهما في علاقة «زوجية»، وانتهيا إلى النتائج التالية:

1. في حوالي ثلثين من العلاقات دخل الشريكان العلاقة وهما يحملان توقعات ظاهرة أو معلنة بالإخلاص في العلاقة.
2. فقط 7 من مجموع العلاقات الـ156 استطاعوا الحفاظ على العلاقة.
3. من هؤلاء السبعة لم يمكث زوجان معاً لأكثر من خمس سنوات. أي أن النسبة نزلت إلى صفر 0% لمن مكثوا معًا أكثر من 5 سنوات.

ويعقِّب الباحثان على هذه النتائج بقولهما: «إنَّ توقُّع الممارسات الجنسية خارج الزواج كان هو القاعدة السائدة بين الأزواج من الرجال (المثليين)، في حين كان هو الاستثناء بين الأزواج من الرجال والنساء (الغيريين) الذين عادة ما يعيشون بتوقُّع أنَّ العلاقة سوف تدوم طوال العمر «حتى يفرِّقنا الموت»؛ بينما يعيش الأزواج من المثليين في حالة

من الشك والتساؤل ما إذا كانت العلاقة ستدوم أم لا»(*).

غير أنَّ ربنا الكريم في محكم تنزيله لم يترك لنا مجالا للتلاعب بأمر الزواج والطلاق، والخلع والظهار، والتبني والقذف... وكلِّ ما من شأنه أن يفكَّ عقدة الزواج المقدَّسة في الإسلام؛ ولقد كان لهذا الاهتمام أثرُه في حياة المسلمين عبر القرون؛ سواء في حالات تمكُّنهم أو في مراحل تخلُّفهم؛ ذلك أنَّ الأسرة بقيت هي صمَّام الأمان، وهي الملاذ والمأوى؛ وهي آخرُ معقل يحصِّن النفوس، والعقول، والأرواح، والأمم، والمجتمعات... ولذا وجب أن لا ينساق المسلمون اليومَ خلف الدعاوى الفاجِرة، والموضات الكافرة، التي تنفثُ سمومها الكاذبة في العقول ابتداءً، ثم في النفوس انتهاءً؛ بالاستسهال والاستهتار، والإلحاح والتكرار؛ وأخيرا تفتِك بالبيوت، وبالروابط والعلاقات التي جعلها الله تعالى أمانًا لنا وضمانا.

من أفق هذه المعاني الربانية الإيمانية، نلج صرح «سورة المجادلة» بحياءٍ واستحياءٍ، مطرِقين وجِلين؛ سائلين الله أن يفتح علينَا، ويفتح لنَا، ويفتح بنَا؛ وأن يجمع بين قلوبنا في تقواه ومرضاته؛ وأن يكتب لنا حظا مع حزبه الذين

(*) (D. P. McWhiter and A. M. Mattison, The Male Couple. How Relationships develop (N.J. Prentice-Hall, 1984) p. 3.

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي
تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ
اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ①﴾

بذور المعنى

- سميت السورة باسم المرأة المجادِلة، تكريمًا لها، وتطمينًا لخاطرها؛ وتخفيفًا على المسلمين في أمر دينهم، وتثبيتا لهم على ما يُرضي الله جل في عُلاه.
- ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: ينبغي أن تعطى البسملة حقَّها ومستحقَّها في هذا الاستهلال وفي غيره، وأن لا نمرَّ عليهَا إلفًا، مرورَ الكرام؛ وهي كلمةٌ تفسَّر في كلِّ سياقٍ تفسيرا جديدًا لائقا به؛ ومن ظلالها في هذه السورة الكريمة

أنها «كلمة بها يُبتلى الأحباب، وبها شفاؤهم وسعادتهم»، وعليها مدار التوحيد، وإليها ينتهي العلم جميعُه، وبفضلها ينمحي الجهلُ كلُّه؛ سبحانه وهو القائل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾؛ وها نحن نقرأ سورة المجادلة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

- ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ﴾: جوابٌ على متوقَّع، و﴿قَدْ﴾ تُستعمل في كلام ينتظره أحدٌ، فقد كان النبيء ﷺ، والمرأة المجادِلة وزوجُها، ومَن معهم من الصحابة، ينتظرون الجواب من الله تعالى، على شكواها.

- السمع: يراد به إدراك الصوت، ويراد به فهمُ المعنى، ويراد به القبول والإجابة؛ والمعاني الثلاثة واردة في القرآن الكريم، تحدِّدها ظلالُ الآية.

- السمع من الله تعالى هو جوابُه للمرأة، أو هو قبولُه شَكواها؛ لأنَّ السمع سببٌ للجوابِ والقبول؛ أو هو كنايةٌ عنهما. أو السمعُ على التحقيق والتأكيد، دلَّ عليه لفظ ﴿قَوْلَ﴾، غير أنَّ السمع والبصر في حقِّ الله تعالى ينبغي أن يُفهم على أساس قاعدة التوحيد: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾؛ كذلك جميع الصفات التي تُنسب إلى البشر، وهي من صفات الله تعالى.

- ﴿الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾: هي خولة بنت ثعلبة، امرأةٌ من الأنصار؛

وزوجها هو أوس بن الصامت؛ وشكواها منه أنه ظاهَر منها. فهي في الظاهر تشتكي إلى رسول الله ﷺ، غير أنَّها في الاعتقاد تشتكي إلى الخالق سبحانه لا إلى المخلوق، وإنما المخلوق واسطةٌ وسببٌ، وَجِهَة تحتكم إليها؛ حتى ولو كان هذا المخلوق رسول الله ﷺ.

- الجدال: هو الأخذ والردُّ، والمناقشة والمحاورة؛ وقد يكون بمعنى المخاصمة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾؛ أمَّا في هذه الآية فهي تقول ورسول الله ﷺ يردُّ عليها، وتناقش وهو يحاورها؛ وليس بالمعنى السلبي والمنهي عنه شرعًا وحُكمًا.

- الاشتكاء: إظهار ما يُبطن المرء من غمٍّ لمن يُشتكى إليه، وهي هنا تُظهره لله تعالى، بالنطق به، أو بالتضرع إليه بقلبها؛ وهو يعلَمه سبحانه سواءً أسرَّته أم أعلنته: ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

- ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿سَمِيعُۢ﴾ لما يقال، ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يُفعل: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾؛ وهو سبحانه سميع لما قالته المرأة لرسول الله ﷺ، سميع لشكواها، بصيرٌ بما كان بينها وبين زوجها من أمرِ الظهار؛ سميعٌ بصيرٌ لكلِّ المسموعات والمبصرات في الوجود، مهما عظمت أو حقرت،

كبرت أم صغرت: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

التشغيل والتفعيل

- صفات الله تعالى قسمان: صفاتٌ للتعلُّق، وصفاتٌ للتخلُّق؛ فالتي للتعلُّق هي التي أَمِرَ العبد أن يؤمن بها ويحبَّها ويقدِّسها ولا يتَّصف بها، بل يتَّصف بضدِّها، مثل: الأَحَد، والصَمد، والعظيم، وذو الجلال؛ أمَّا صفاتُ التخلُّق فهي التي أَمِر العبدُ أن يؤمن بها ويحبَّها ويقدِّسها، ثم يتخلَّق بها، مثل الرحيم، والحليم، والكريم، والعفوّ.
- لمَّا صدَقت المرأة في شكواها إلى الله تعالى، وأيست من استكشاف ضرِّها مِن غير الله سبحانه، أنزل الله في شأنها قرآنًا يُتلى، وكشف عن ضرِّها مِن فوق سبع سمواتٍ؛ وكذلك الحالُ لمن صدَق وأخلص في التوجه إلى ربه جَلَّ جَلَالُهُ؛ فالفرج أقرب إليه من كلِّ قريبٍ.
- في سكوت الرسول عنها، وانتظار الحكم من الله سبحانه، توجيهٌ إلى عدم استعجالِ الحكم في الفتوى، بخاصَّة ما كان له أثرٌ على العلاقات الأسرية، أو حقوقِ العباد.

- لا بلوى إلاَّ بقضاء الله جَلَّجَلَالُهُ، ولا شكوى إلاَّ لله تعالى شأنه، ولا فرَج إلاَّ من الله عظُم قدره؛ فليكن إلى الله المطلب والمفزع، والتضرُّع والتذلُّل.
- في السنَّة الصحيحة: «**إنَّ ربكم** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **حييٌّ كريمٌ، يَستحيي مِن عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً خائبتين**». فلنرفع إليه أكفَّ الضراعة في جميع حاجاتنا، مهما بدت صغيرة أو يسيرة، وفي الحديث: «**اسألوا الله ولو في شراك نِعالكم**».
- الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حاضرٌ هذا الشأن الفرديَّ العائليَّ الخاصَّ، لامرأة من عامَّة المسلمين، فهو لا يشغله شأنُ المُلك والملكوت عن سماع شكواها وشكوى الناس جميعًا؛ ولا يشغله عن الحكم في شأنها أمرٌ مهما عظُم. هي عبرةٌ لكلِّ مسلم، في كلِّ حال من أحواله. سبحان الله هو ذو الجلال والإكرام.

من الفكر إلى الفعل

- الحوار في أدق تفاصيل الحياة من أمارات الرقيِّ الحضاري.
- لا شكوى إلاَّ لله تعالى؛ حتى في حضرة الرسول ﷺ، أمَّا في حضرة غيره فمن باب أولى.
- ما من قول أو فعل تأتيه أو تذرُه إلاَّ والله تعالى يسمعه، ويجازيك عنه الجزاء الأوفى.
- الله تعالى بصيرٌ، فاحرص أن يكون جميعُ عملك معدًّا بعنايةٍ، فعلَ من ينتظر التفتيش.
- سمعُ الله تعالى وبصره ليس كسمع البشر ولا كأبصارهم.
- الجدل الفلسفيُّ حول اطلاع الله تعالى على الجزئيات لا مبرِّر له؛ ذلك أنَّ القاعدة تقول ﴿لا يخفى عليه شيء﴾.
- للقراءة: «**المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**» لأبي حامد الغزالي؛ و«**الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**» للقطب اطفيش..

قال الله تعالى:

الَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿2﴾

بذور المعنى

- ﴿الَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾: في الخبر أنَّ المرأة قالت: «يا رسول الله، إنَّ أوسًا تزوَّجني شابَّة غنية ذات أهلٍ ومالٍ كثيرٍ، فلمَّا خلا سني، ونثرت بعلي (كبر سني، وكثر ولدي) وذهب مالي، وتفرَّق أهلي، جعلني عليه كظهر أمِّه؛ وقد ندِمَ وندمتُ، وإنَّ لي منه صِبيةً صغارا، إن ضممتُهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا». فقال لها رسول الله ﷺ: «**ما أمِرتُ بشيء في شأنك**».
- أصل الظهار لغة: علاجُ ركوب الظهر، وهو قول الرجل

لزوجه: «عُلوِّي عليكِ كعلوِّي على أمِّي»، وقوله: «أنتِ عليَّ كظهر أمي» أي ظهرك عليَّ حرامٌ كظهر أمِّي.

- والظهار اصطلاحا: تشبيه الرجل زوجه أو بعضَها في الحِرمة على نفسه، بمن تحرم عليه كأمِّه، أو كنساء الرجال، أو غيرهنَّ مما حرَّم الله عليه.

- الظهار بين اللفظ والنية: لفظ الظهار الصريح: «أنت عليَّ كظهر أمي»، فهو ظهارٌ سواءً نوى أو لم ينو؛ والشرطُ أن تكون له نية الظهار إذا شبَّه زوجه بأمِّه كنايةً لا تصريحًا كأن يقول: «أنت عليَّ مثل أمِّي»، إذ يحتمل أن يقصد التقدير والمحبَّة.

- ﴿مِنكُم﴾: أيها المؤمنون، فلا يُتصوَّر الظهار من مشرك، لأنَّ المؤمنين هم المنتفعون بالقرآن، المتَّبعون له؛ أمَّا الكافر والمشرك فلا يحتكم إلى ما جاء به الوحي، وإلى ما أمر به الله ورسوله ﷺ.

- والأسلوب فيه تطمين لمن اقترف إثم الظهار بأنه لم يخرج من ربقة الإسلام، فهو ﴿مِنكُم﴾؛ وخلاف ذلك حين يوظف الشارع عبارة «ليس منا»؛ ومثل ذلك قول رسول الله ﷺ: «**ليس منَّا من خبَّب (أفسد) امرأةً على زوجها، أو عبدًا على سيده**»، ففيه تهديد للفاعل أن يخرج من زمرة المسلمين؛ إلاَّ أن يتوبَ.

- ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾: أمُّك هي التي ولدتك، وجميعُ غيرها من النساء لا يعتبر أمًّا؛ ولا تجري عليها أحكام الأمِّ شرعًا ولا عقلاً. وأمُّ كل شيء أصله الذي يعود إليه.
- ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾: القول الذي يأتي ظهارا هو قولٌ منكَر، وهو زورٌ من القول. فالمنكر: ما ينكره الطبع والعقل والشرع. والقول الزور: هو الكذب والباطل، وهو ما مال عن الحقِّ وازورَّ عنه.
- ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ لما سلف من تصرُّفاتكم، ولما سبق من تجاوزاتكم، ولَما قد يصدر منكم ثم تندمَون عليه وتستغفرون؛ لا بمعَنى العفو والمغفرة حتى على المستهتر غير التائب. فهي دعوة إلى التوبة لله تعالى، لا دعوة إلى الجرأة على الله سبحانه.

التشغيل والتفعيل

- السؤال الحريُّ هو: هل توجد صورٌ للظهار مستحدثة، مع تنامي المنظومات التشريعية المدنية، ووسائل التواصل والإعلام، والرغبة في الخروج عن الفطرة بتحكُّم وتشريع بشريٍّ؟ لا ريب أنَّ العلاقات الزوجية تعقَّدت لتضارُب قوانين الشرع مع القوانين الوضعية،

التي لا تضع في الحسبان الحلِّية والحرمة.

- سياقُ الآية يحذِّر الذين يفحُشون في القول، ويقول لهم: احذروا، وفرِّقوا بين الزوجة والأمِّ: ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾.
- الإسلام جُبٌّ لما قبله، هي من رحمة الله تعالى على عباده؛ وجب أن يقابلوها بالإنابة إليه، وبالتوبة والاستغفار، وفعل الخيرات وترك المنكرات.
- قد يكون للكلمة أثرٌ خطيرٌ، مثل ما لكلمة الظهار من تبعات؛ ولذا وجب الأخذ بقول رسول الله ﷺ: «أمسك عليك لسانك» في هذا الشأن وفي غيره.
- في الحديث الشريف: «**ثلاثٌ جدُّهن جدٌّ، وهزلهن جدٌّ: الطلاق، والنكاح، والعتق**». وحكم الظهار مُلحق بحكم الطلاق؛ لأنه فرعٌ عنه.
- ما جرى عليه عرف الناس، سواءً في مرحلة كفرٍ مضى، مثل الظهار؛ أو عند قوم من غير المؤمنين ثم أسلموا؛ يجب أن يخضعوه لحكم الشرع الحكيم، كان ذلك قولا، أو فعلا، أو تركا؛ وأن يلتزموا في التصحيح سبيلَ الرفق والتيسير. ومن هذا المنطلق يمكن معالجة «حكم الدار»، و«أحكام السلم والحرب» في عصرنا هذا.
- كثير من الأمور يحكم فيها ظاهر العلم بشيءٍ، ثم تغير

الضرورة ذلك الحكم إلى غير ما حكم به أوَّل مرَّة؛ ذلك أنَّ ما يجهله الإنسان أكثر مما يعلمه، فالغالب عليه هو الجهلُ لا العلم، ولذا وجب الاعتماد على «العقل الجمعيِّ»، وعلى «التخصصات المختلفة» في المسألة الواحدة: الظاهرة الإنسانية مركَّبة وليست بسيطة.

من الفكر إلى الفعل

- حين الطلاقِ، القاعدةُ الكلية الصادقة غالبا: «إن ضمَّهم الأب ضاعوا، وإن ضمَّتهم الأم جاعوا».
- ليس أمرُ العلاقات الأسرية بالهيِّن، ولذا تدخَّل الوحي في تقنينه؛ ونهى عن التلاعب به.
- مهما بدت المعصية كبيرة فإنَّ رحمة الله ومغفرته أكبر وأوسع لمن نوى التوبة، وعاد إلى الله سبحانه.
- الزوجة زوجةٌ، والأمُّ أمٌّ، لكلٍّ منهما مكانتها وقدرها، وحقوقها وواجباتها.
- الدعوة إلى «حقوق المرأة» تغفل حقيقة «حقوق الأم»، و«حقوق الزوجة»، و«حقوق البنت»... وغيرها.
- من الضروري اليوم الاعتماد على «العقل الجمعيِّ»، وعلى «التخصصات المختلفة» في المسألة الواحدة.
- ما أحوجنا إلى معاهد عالية، ومراكز بحث متخصصة في «الأسرة»؛ ذلك أنَّ الأسرة توزعتها تخصصات كثيرة.
- للقراءة: «الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن» مكي القيسي القرطبي؛ و«الأسرة وقضايا الزواج» علي القائمي.

قال الله تعالى:

وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿3﴾

بذور المعنى

- ﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾: أي يعدِلون عن كلمة الظِّهار، بعدما صدرت منهم؛ ويتنازلون عنها، ويندمون على ما قالوا، وعلى ما فعلوا؛ ويريدون مراجعة الزوجة، كما قالت خولة عن زوجها: «وقد ندِمَ وندمتُ».
- ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾: تحرُم الزوجة على زوجها الذي ظاهرها حتى يؤدِّي الكفَّارة، أي لا يجوز له أن يواقعها قبل أداء الكفارة، وعبَّر عن المواقعة بالمماسَّة، كما عبر عنها بقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ

مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ...﴾ الآية.

- وكفارةُ الظهار: تحرير رقبةٍ وعتقُها؛ وقد تكون رقبةً مملوكة عنده يحرِّرها، أو يشتريها ويُعتقها؛ والحكمة التشريعية أن يقضي الإسلام على الرقِّ بمرحلية وتدرُّج، وقد فعلَ؛ فمن لم يجد رقبةً فالكفَّارة صيام شهرين متتابعين، وفي الآية اللاحقة بيان لتتابع أنواعها.
- ظاهِر الآية أنَّ الظهار من الكبائر عند بعض الفقهاء؛ وأطلق البعضُ كراهةَ الظهار كراهةً شديدةً، ولم يعدَّها كبيرةً في شأن الموحِّد؛ لأنه ما أراد إلاَّ عبارةً عن طلاق مخصوصٍ.
- ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾: أي تحريركم للرقبة عظةٌ لكم تتَّعظون به، فتنتهون عن الظهار، وعن القول المنكر والزور. والوعظ تذكيرٌ بالخير، وتحذيرٌ من الشرِّ، بترغيبٍ أو ترهيبٍ.
- ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: الله تعالى بجميع ما تعملون خبيرٌ: بما كان منكم من ظهارٍ، ومن ندمٍ، ومن عودةٍ عن الظهار، ومن أداءِ الكفارة؛ وهو عليمٌ بغير ذلك مما تعملون، لا يخفى عنه من أمركم شيءٌ.

التشغيل والتفعيل

- الله تعالى خبيرٌ بعمل العبد؛ وعملُ العبد المؤسَّس على اليقين، يقلِّل من المعاصي، وإن وقعت المعصيةُ فيسرِّع إلى التوبة والاستغفار. وذلك مدلول «العملِ بيقين وجودِ المراقِب الخبير الدائم، الذي لا يغفل ولا يفوته شيءٌ».
- الندم من المعصية، والاستغفار من قريبٍ، والعودة في القول وفي الفعل عن الخطأِ، من شيم المؤمن الصادق؛ ومن ﴿يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، «**ومن تاب، تاب الله عليه**».
- لا يجوز للمسلم أن ييأس من عفو الله تعالى ومغفرته، ولا أن يقنط من رحمة الله جَلَّجَلَالُهُ؛ كما لا يجوز له أن يغترَّ بالأماني، حتى يجيء أمرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
- الآية تنهى عن الإصرار على المعصية، وتدفع إلى المسارعة في التوبة والاستغفار، مع شرط الندم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.
- الكفَّارة: هي جبرٌ للخلَل، أو عقوبةٌ محضةٌ، أو محوٌ

للذنب، وقيل هي دائرةٌ بين العبادة والعقوبة، وهو الأصحُّ. وأداءُ الكفارات طاعةٌ وعبادةٌ من العبد لله سبحانه؛ ويمكن استنباط مناهج تربوية وقانونية مؤسَّسة على فلسفة «الخطأ، والتوبة، والكفَّارة» في التصوُّر الإسلامي. بعيدًا عن فكرة الخطيئة المسيحيَّة، وعن نظريات العبث واللامعنى في الفلسفة المعاصرة.

اختلفت المذاهب، هل يُشترط في كفَّارة الظهار أن تكون «رقبةً مؤمنة» أم يجوز أن تكون رقبةً غير مؤمنة؟ وقد اختار أبو حنيفة الرأي الثاني، بينما اختار الشافعي وعليه الراجح في المذهب الإباضي أن تكون الرقبةُ مؤمنةً؛ والأدلة التي لأبي حنيفة في هذه المسألة أقوى، ورأيه أكثر توافقا مع المقاصد الكبرى للإسلام، بخاصَّة في عصرنا.

∴ من الفكر إلى الفعل

- كفى بالله سبحانه واعظا لنا، وكفى به خبيرا بأعمالنا.
- العودة عن الذنب من أبرز خصائص العقيدة الإسلامية، وباب التوبة أبدا مفتوحٌ.
- الله تعالى يعظنا رحمة منه وفضلا، فهل نحن له مستجيبون؟
- الشيطان الرجيم يعظنا ويمنِّينا ولا يعظنا إلاَّ غرورًا، فَلِمَ نقع في حباله، ولا نعتبر؟
- خبرة الله تعالى بما نعمل تدفعنا إلى الإتقان والإحسان؛ فما بال المسلم الذي لا يتقن ولا يحسن؟
- الإصرار هو: الإقامة على الذنب، كبيرا كان أو صغيرا، وعدم الإقلاع عنه، وعدم التوبة منه؛ وهو من الكبائر.
- أعظمُ وِزرًا من اقترافِ الذنب الإصرارُ عليه، وأعظم جرمًا من الإصرار على الذنب استحلالُه.
- نية التوبة مستصحبة للمؤمن في جميع أحواله، ولا تكون هذه النية إلا لمن عبد الله من مقام التذلل إليه سبحانه.
- للقراءة: «**معجم مصطلحات الإباضية**» فريق بحث جمعية التراث، الجزائر.

قال الله تعالى:

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَنْ يَّتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُومِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ اَلِيمٌ ۝4﴾

بذور المعنى

- ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾: رقبةً يعتِقها، أو وجدها ولم يجد ثمنًا يشتريها به. والغالبُ في هذا العصر صعوبةُ إيجاد الرقبة بخاصَّة إذا اشتُرط أن تكون مؤمنةً. لكن، هل يمكن أن تُقاس بالرقِّ المعروف في الجاهلية رقابٌ أخرى تُعتَق من الجهلِ، ومن التبعيةِ، ومن صور الاسترقاق المستحدَثة؛ أو من أسرى الحروب التي بين المسلمين والكفار، أو من المهجرين من بلادهم عنوة وقسرًا؟ لا مهرب من الاجتهاد في هذا السبيل.
- ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾: يشترط في صيام كفَّارة

الظهار أن يكون متتابعًا، إلاَّ لضرورة من مرضٍ، أو سفرٍ. ولكن، هل العدول عن العتق إلى الصوم يكون بعد استفراغ الجهد في البحث عن الرقبة؟ أم أنه بمجرَّد أن لا تتوفَّر له ظاهرًا، يؤول إلى الصيام؟ الحقُّ أنَّ الصيغة «فمن لم يجد» دالَّة على بذل الجهدِ في البحث، وليس مجرَّد عدم التوفر بلا جهد.

- ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾: الصومَ البتَّة، أو استطاع الصوم لكن بلا تتابعٍ. كذلك لا يتحوَّل إلى الإطعام إلاَّ إذا استحال عليه الصوم، وكان له مشقَّة متحقَّقة لا متوهَّمة.

- ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾: الإطعام من أوسط ما يطعم المُظاهِر أهله، وأُجيز من غالب طعام البلد في غالب السنَة، وقد اختُلف هل يجزي إطعامُ مسكينٍ ستين يومًا، أم الشرط ستين مسكينا مختلفًا؛ وعلِّل لذلك بأنَّه إدخالٌ للسرور على كثيرين أولى من الواحد، وأنه جالب للدعاء والحبِّ من كثرة، وهو أفضل من دعاء الواحد؛ غير أنَّ التيسير يقضي بقبول الرأي الأوَّل.

- وإن مضت مدَّة أربعة أشهر ولم يكفِّر المُظاهر خرجت منه زوجته بالإيلاء في مذهبٍ، ومذهبٌ آخر أنَّه إذا لم يجد التكفير بأحد الثلاثة أخِّر حتى يجد.

- ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤمِنُوا﴾ بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وتومنوا بالرسول ﷺ، إيمانًا مستتبعًا للعمل ولاتباع الشريعة، وترك ما حرَّم

الله تعالى عليكم.

- ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾: الأحكام هي حدود الله جَلَّ وَعَلَا، لا يسوغُ لأحدٍ مجاوزتها أو تركُها، ولا استبدالُ غيرها بها من الأحكام التي لا تلائم روحَ الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والرسول ﷺ، وهو الواقع من خلال الكثير من القوانين المدنية المخالفة لروح الشريعة.
- ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: الآية ظاهرةٌ في المشركين، ولا تَعني الكفَّار كفرَ نعمةٍ، أو كفرَ جارحةٍ، من الموحِّدين المخالِفين لأحكام الظهار.

التشغيل والتفعيل

- الوقوف عند أحكام الله تعالى، بعدم تعدِّيها، وبإتيانها كمَا أمر الله سبحانه، علامةٌ من علامات إيمانِ المرءِ؛ أمَّا من يشكِّك، ومن يتعدَّ حدودَ الله جَلَّ جَلَالُهُ، فهو مرتكبٌ لكبيرةٍ، ظالمٌ لنفسِه؛ وأشدُّ منه وِزرا مَن أحلَّ حراما، أو حرَّم حلالاً؛ بأيِّ مبرِّر كان.
- يجب صيام شهرين متتابعين في ثلاث حالات: القتل الخطأ، والظِّهار، والجماع في نهار رمضان.
- مَن وجب عليه صيام شهرين متتابعين فلا يقطع صومه إلاَّ بعذر شرعيٍّ من مرضٍ، أو جنونٍ، أو حيضٍ، أو

سفرٍ؛ فإذا قطعه لغير عُذر شرعيٍّ وجب عليه أن يعيد صوم الشهرين من جديد، وإذا قطعه لعذر شرعيٍّ وجب عليه التتابع عند زوال العذر.

- لقد زال الرقُّ بمعناه القديم، ولكن ولد مكانه رقٌّ أخطر من الرقِّ المعهود؛ وذلك من خلال أحكام الهجرة والتهجير، وإشعالِ الفتن والحروب الداخلية، ثم استرقاق أهلِ البلد الذي يهرب منه رجاله ونساؤه؛ من مثل ما يحدث في سورية مع الدول الغربية، وبعض الدول العربية للأسف؛ التي تخيَّرت منهم من تسترقُّ، ثم طردت من لا ترغب فيه إلى ما وراء حدودها، أو ألقت بهم في البحر.
- أحصى تقرير أعدَّ عام 2016م ضحايا عبودية العصر في العالم، مُسجلًا حوالي 45.8 مليون فرد في عداد «العبيد»، وهو رقم أكبر بنسبة 28% من التقديرات السابقة لسنة 2014م، ما يشير إلى أن الظاهرة في تزايد مطَّرد.
- الإيمان شرط في العمل الصالح، والعمل مهما بدَا صالحا إذا خلا من الإيمان فهو إلى زوال، وهو فاقد للمبرِّر وللدافع والدوام؛ بسبب ذلك جاء ذكر ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ بين قوله جلَّ شأنه: ﴿لِتُومِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وقوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

من الفكر إلى الفعل

- ينحو التشريع الإسلامي في الكفارات والعقوبات منحى التيسير والتخفيف.
- يعامَل المسلم بقاعدة: «الأمر إذا ضاق اتسع، وإذا اتسع ضاق».
- المربي الحليم إذا شدَّد العقوبة ابتداءً خففها انتهاءً؛ أمَّا اللئيم فإنَّه يصعِّد في العقوبة، ثم ينتهي بالظلم والشدة والقسوة.
- يمهل الله تعالى للكافر، حتى إذا لم يُبق له عذرًا أخذه أخذ عزيز مقتدر.
- الله تعالى لا ولم ولن يظلم عباده؛ وإنما العباد هم الذين يظلمون أنفسهم: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.
- عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: «**لأعلمنَّ أقواما من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله هباء منثورا**»، قال ثوبان: يا رسول الله، صفهم لنا وجلِّهم، لا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال: «**أمَا إنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها**».

قال الله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿5﴾

بذور المعنى

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: أي يخالفون الله ورسولَه؛ كأنهم في حدٍّ والله تعالى ورسوله في حدٍّ آخر، وجهةٍ أخرى، وأبلغ منه: أنهم يجعلون هواهم في حدٍّ وأوامر الله تعالى في حدٍّ آخرَ مناقضٍ. وهذا المعنى أفضل من أن يجعل ﴿يُحَآدُّونَ﴾ من المفاعلة بالحديد، أي المحاربة باستعمال الحديد؛ وإن كان المعنى غير بعيدٍ، فمن خالف أوشك أن يحارِب.
- ﴿كُبِتُوا﴾: نالهم الخزيُ والغيظُ، أو رُدُّوا مخذولين وأهلِكوا، أو رُدُّوا بعنف وإذلال.

- يقال: كبَت اللهُ العدوَّ: ردَّه بِغيظه، وأهلكه، وأهانه، وأذلَّه، وأغمَّه بالهزيمة. وأَصلُ الكَبْتِ: الكَبُّ، وهو الإلقاء على الوجه. أو الكبتُ: الصدمةُ الشديدة التي تُسكِت المرء فلا ينطق لهول ما يرى من المصيبة، ونظيره: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾.

- قد تكون ﴿كُبِتُوا﴾ دعاءً عليهم، والقاعدة الأصولية هي أنَّ «الدعاء من الله سبحانه حُكمٌ»، فهو المريد، وهو الفعَّال لما يريد.

- ﴿كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: المشركون والكفَّار، من أعداء الرسل؛ ولقد أذلهم الله تعالى، وأذاقهم العذاب الشديد؛ قال تعالى عن قوم عادٍ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾. وكلُّ قوم كذَّبوا الرسل يجازون بأن ينيلهم الله تعالى سوء المصير فيكبَتوا ويذوقوا سوء العذاب.

- ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾: هي الآيات التي تدلُّ على صدق الرسول ﷺ، وأنَّ ما جاء به حقٌّ من عند الله سبحانه. وهي الآيات الواضحات مما أجمعت عليه الأمَّة، تلك التي يصدِّقها العقل، وتقبلها الفطرة السليمة.

- ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: وُصف عذابهم بالمهين،

لمناسبة وعيدهم بالكبت، الذي هو الذلُّ والإهانة؛ وهو العذاب الذي يُهينهم ويذهِب كبرياءهم وعزَّهم، ويُرديهم في أقبح مقرٍّ، وأهون مستقرٍّ.

التشغيل والتفعيل

- بهذه الآية وغيرها من الآيات التي توجب طاعة الله مقرونةً بطاعة رسوله، يُردُّ على الذين ينادون بالأخذ بالقرآن فقط، ويرفضون الأخذ بسنَّة رسوله ﷺ؛ تحت مبرِّرات واهية لا مسوِّغ لها.
- من منطوق الآية الكريمة نعظِّم السنَّة الشريفة، ونعتني بها، ونعتقد وجوبَ العمل بها، وندين بالردِّ على من أنكرها: وفي الحديث الشريف: «**يوشِك الرجل متكئاً على أريكته يحدِّث بحديث من حديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله** عَزَّوَجَلَّ، **ما وجدنا فيه من حلالٍ استحللناهُ، وما وجدنا فيه من حرام حرَّمناه؛ ألا وإنَّ ما حرَّم رسول الله** ﷺ **مثل ما حرَّم الله**».
- «أطيعوا الله في إجمال الحكم، وأطيعوا رسول الله ﷺ في تفصيل الحكم» قاعدةٌ كلية، وفي كتاب الله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾.

- أجرى الله سبحانه سنَّته بالانتقام من أهل الإجرام، فمن ضيَّع للرسول سنَّةً، وأحدث في دينه بدعةً، يوشك أن ينخرط في هذا السلك، ويقع في هذا الذلِّ؛ إلاَّ أن يتوب.
- قضية الإيمان بالله من الوضوح بحيث لا يملك أحدٌ ردَّها، إلاَّ إذا عاند فطرته، وعطَّل عقله؛ ومع ذلك يكثر الضَّالون المكذِّبون، ويقلُّ المهتدون المصدِّقون.
- الذين ﴿يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بمخالفتهم ومعاداتهم لروح الإيمان والتوحيد، بأنواع الشرك، والجحود، والتشويه المعرفيِّ، والفوضى الفكرية، وتغييب المعنى، ومعاندة الحقِّ، وتزيين الباطل... أعظمُ ضررا ممن يحادّ الله ورسوله بالمعصية العملية: تركا لواجب، أو إتيانا لمحرَّم.

من الفكر إلى الفعل

- لا يحادُّ قضية الإيمان بالله سبحانه إلاَّ من عاند فطرته، وعطَّل عقله، وجهل قدره وقدر ربه.
- ما أعظم غرور الذي يجعل نفسه في حدٍّ والله تعالى في حدٍّ، ويعلن الحرب على ربه جَلَّجَلَالُهُ.
- تُرَدُّ الآيات المتشابهات إلى الآيات البيِّنات، ولكلٍّ منها دورٌ ومهمَّة في منطق الوحي.
- لا مهرب من البحث اليوم عن صور محاربة الله ورسوله، في عصر لبس فيه العلم لبوس الجور والإلحاد.
- من بين أوجه الشرك اليومَ: التشويه المعرفيُّ، والفوضى الفكرية، وتغييب المعنى، وتزييف الحقِّ، وتزيين الباطل، وتقنين الجور... باسم القانون والقوة والعلم.
- للمطالعة: «**الأزمنة المهيمنة والزمن الصبغة**» لمحمد باباعمي؛ بخاصة مبحث «**إبعاد الدين**» في الفكر الغربي. مقال «**الإلحاد والمعنى**» ترجمة: حصة عبد الرحمن، مركز دلائل عن موقع جامعة كمبردج (د.م).

قال الله تعالى:

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ 6

بذور المعنى

- ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾: تذكير للكافرين بيوم البعث والحساب، الذي يحصي الله تعالى لهم فيه كلَّ شيءٍ مهما بدا صغيرًا أو كبيرًا، مما نسوه أو ذكروه، ولا يغيب أحد منهم ذكرا كان أو أنثى، حقيرا كان أو عظيما: ﴿جَمِيعًا﴾.
- ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾: من المعاصي، وهو نوعٌ من العقاب النفسيِّ قبل العقاب الجسديِّ، ويمكن أن يكون المعنى أنَّ الله تعالى يصوِّر لهم معاصيهم، فيرونها على شكل فظيعٍ، كما في حديث الإسراء.

- الله تعالى يُحصي على العباد جميعًا أعمالهم جميعَها، ليروها يوم يلقوْنه، ولو شاء سبحانه لما فعل وهو العدل الحكيم؛ لكنَّ ذلك ليس بإلزام ملزِمٍ، وإنما هو رحمةٌ منه بعباده، وفيه مطلق القسط والعدل والرحمة.

- في الآية من معاني الاستغراق ما يبعث على اليقين: فالكفار يُبعثون جميعًا وكذا المؤمنون، لا أحد منهم يغيبُ؛ والله تعالى يخبرهم جميعا بأعمالهم بلا استثناءٍ؛ وهو سبحانه يحصي عليهم كلَّ شيء صدرَ منهم؛ بل الله شهيدٌ على كلِّ شيء، سواء له علاقة بالإنسان، أو مما هو خارج محيطه وعالمه الفسيح.

- ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾: حقيقة الإحصاء معرفةُ عددِ الشيء، وهو مشتقٌّ من الحصَى؛ غير أنه هنا لا يقتصر على العدد، ولكن يتجاوزه إلى العلم بحقيقة ما فعلوا كيفًا وكمًّا، ما خفي منه وما ظهر، ما محيَ منه وما أثبتَ، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾.

- ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾: شهد الله لنفسه شهادة كمالٍ، شهادة الذاتِ للذات، وشهدت الملائكة له شهادة اعتراف وخضوع، وشهد أولو العلم له شهادة دليلٍ وبرهانٍ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَآئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ﴾.

- لا يوجد شيءٌ من جوهرٍ أو عرَض، في مطلق الوجود، أو حتى ما كان ليوجد فمُحي ولم يوجَد؛ إلاَّ والله شهيد عليه سبحانه: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.
- يقال: إذا حوسب أحدٌ يوم القيامة تَصوَّر له ما فعله وتذكَّره «مهانةً له على رؤوس الأشهاد»؛ حتى كأنَّه مُواقعٌ تلك الزلَّة حينَها، فيقع عليه من الخجل والندم ما ينسى في جنبه كلَّ عقابٍ. ومن رحمة الله أنَّ من أطاع الله سبحانه تُصوَّر له طاعته، فيجد من الرضا والطمأنينة ما لا يوصف، حتى ليحتقر في جنبه كلَّ نعيمٍ.

التشغيل والتفعيل

- كلُّ شيء مدوَّن في لوح المحو والإثبات؛ فلنحرص على تحسينه؛ لنفرحَ به يوم الحساب. وليطمئنَّ بمعية الله وشهوده المؤمنون، وليحذر حضورَ الله وشهوده الكافرون.
- ما دام الله تعالى شاهدًا وشهيدًا على كلِّ شيء، فهو شهيد على فكرنا وعلمنا، وخفايا نفوسنا ونوايانا، وفعلنا وتركنا... فلنحسِّن كلَّ ذلك لوجهه الكريم،

ولنجتهد أن تكون موافِقة لرضا الله تعالى؛ حتى إذا أخطأنا غفر الله لنا، لحسن توجُّهنا إليه.

- المؤمن لا ينسى معصيته، بل يتذكَّرها، ويندم على إتيانها، ويحرص على محوها بالتوبة والاستغفار لله تعالى، وبإتيان الطاعات ليذهبها بها؛ أمَّا الكافر فينساها في الدنيا لاهيًا، وينساها في الآخرة مُهانًا ومُكبتًا.
- ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ قاعدة كلية في التوحيد والعقيدة؛ وهي عامَّة في فعل الخيرات والمبرات، وفي اجتراح الذنوب والخطيئات؛ فإذا كان الإنسان ينسَى، فإنَّ الله تعالى لا ينسى؛ بل يحصي كلَّ نية، وكلَّ كلمةٍ، وكلَّ فعلٍ؛ ثم يجازي كلًّا بلا ظلمٍ ولا جورٍ.

من الفكر إلى الفعل

- يوم البعث حقٌّ لا مراء فيه، والإيمان به يزع صاحبه إلى الخير، ويردعه عن الشر.
- تخويف الله جَلَّجَلَالُهُ لعباده هو من أجلِّ صور الرحمة بهم؛ حتى لا يقعوا في المعاصي والمحرمات.
- لا أحد من خلق الله يتخلف عن يوم العرض الأكبر، وسيجازى كلٌّ بما عمل.
- إذا نسي الإنسان فعله فإنَّ الله تعالى لا ينساه، وهو يحصيه له، ويجازيه به.
- أعظم الأجر أن تفعل الخير وتنساه، وإذا فعلت شرا أن تتذكره حتى تتوب منه.
- شهادة الله على كلِّ شيءٍ من تمام صفات الكمال، فلا شيء يتفلت من علمه، أو يخفى عليه، سبحانه..

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)

بذور المعنى

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: يجوز أن تكون بمعنى «ألم تعلم»، أي ألم تنظر بعين عقلك وقلبِك؛ أو بمعنى «ترى» رأي العين، والحكمة من استخدام «ترى» عوض «تعلم» ليدلَّ على أنَّ إخبار الله لرسوله ﷺ أصدق من رؤية عينيه.
- ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾: النجوى اسم مصدرٍ من التناجي، بمعنى المسارَّة، أي تبادُل الأسرار بصوت خافتٍ؛ مأخوذة من

مادة «ن.ج.و» التي تدلُّ على الستر والإخفاء. وأصل المناجاة أن تخلوَ بمن تُناجيه في نجوةٍ، أي في مكان مرتفعٍ من الأرض.

- استوعبت الآية جميع الاحتمالات وجميع الأعداد بأسلوب واضح مختصر معجز: «ثلاثة، أربعة، خمسة، وستة» وأدنى من ذلك أي اثنان لأنَّ الواحد ليس عددًا، ولا نجوى في واحد، وأكثر من الستة إلى ما فوق ذلك بلا حصرٍ.

- ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾: في أيِّ موضع ومكانٍ كانوا، فالله تعالى «لا تخفى عليه خافية»، وهو ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾.

- روي أنَّ قوما من المنافقين خلوا وتناجوا في ثلاثةٍ مرَّة، وفي خمسةٍ أخرى؛ ففضحهم الله تعالى بهذه الآية؛ أو خُصَّ العددان لجريان العادة بهما، فغالب النجوى تكون بهذين العدَدين.

- ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كما في الآية السابقة، أي سبحانه يفضحهم في أنفسهم، وعند الناس، أمام الأشهاد.

- ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: الله سبحانه يعلم ما في السموات والأرض بذواتها وجواهرها، ويعلم كذلك المحدَثات والمستجدَّات بأعراضِها وتغيُّراتها؛ ومن

ذلك نجوى الناس بينهم، فالله تعالى يعلمه، بل يعلم ما تخفي صدورهم قبل التناجي، وما يُعلنون بالتناجي أو بغيره.

التشغيل والتفعيل

- في الترتيب ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ عوض تقديم الأرض على السماوات، كما في آل عمران: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ﴾، حكمة وتوجيه بديع؛ لكن المسألة للبحث.
- في الحديث الشريف، قال رسول الله ﷺ: «**لا يتناجى اثنان دون الثالث فإنَّ ذلك يُحزنه**»، والنهي عن النجوى فيه من الدعوة إلى الخلُق الحميد ما يُصلح شؤونَ العباد؛ وإقرار الناس على النجوى مَفسدةٌ للعلاقات، وللعشرة بين الناس، ولمصالح البلاد والعباد.
- لا بدَّ أن يتحوَّل معنى «علم الله تعالى» بالسرِّ والعلانية، إلى شعورٍ عقديٍّ بالمسؤولية، وبالمراقبة الدقيقة من الله تعالى؛ فيحرِّك في صاحبه العملَ الصالح، والإخلاصَ، وابتغاءَ رضوان الله تعالى في كلِّ صغير وكبير.

«أقلُّ الجمع ثلاثة على المشهور»: آثار هذه القاعدة وتطبيقاتها على حياتنا العملية، والإدارية، والاجتماعية عظيمة. فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب**».

من الفكر إلى الفعل

- أسلوب الخطاب من الله تعالى لنا: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يوقظ اهتمامنا، ويحرك فينا حبَّ الطاعة والائتمار.
- الجمع بين علم الله تعالى لما في السماوات والأرض، وعلمه بما يكون من نجوى بين الناس؛ دالٌّ على أنه سبحانه لا يشغله شأن عن شأن.
- بدأ الله تعالى الآية بالعلم، وختمها بالعلم؛ فلنشرِّف مقام العلم، ولنُعلِ من شأنه.
- اعتقاد معية الله لنا دافعة للعمل الصالح، مانعة من العمل الفاسد؛ وهو معَنا سواء اعتقدنا ذلك أم لم نعتقد.
- الله سبحانه وهو يعلِّمنا آداب التناجي يعلمنا كذلك أن نضبط جميع أمورنا في قواعد وآداب تصلح أمرنا، وتزرع الودَّ بيننا، وتمنع البغضاء والشحناء.
- إذا كان خالقنا سبحانه حريصًا أن لا ينالنا ضرٌّ فما بالنا نعمد إلى الإضرار بغيرنا ظلما وعلوا؟
- للقراءة: «**دستور الأخلاق في القرآن**» لمحمد عبد الله دراز.

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ
وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ
حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا
اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿8﴾

بذور المعنى

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ هم جماعةٌ من اليهود والمنافقين، فضحهم الله تعالى، وأخبر نبيَّه بسوء نواياهم، وبما يقولونه في أنفسِهم؛ ولو كان فيهم خيرًا لكفاهم هذا دليلاً على صدق رسول الله ﷺ، إذًا لآمنوا وتابوا.

- ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾: عودتهم للنجوى بعد أن نُهوا عنها إصرارٌ وتمرُّد على الحقِّ، وعصيانٌ لله سبحانه، ومشاقَّة للرسول ﷺ.

- كان الله تعالى يفضح المنافقين، ويخبر بما يختلج في قلوبهم، وما يقولونه في السرِّ، قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾.

- ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾: من صفات المتناجين من المنافقين أنهم: يتغامزون بينهم، وينظرون إلى المؤمنين نظرا شزرا لِيُغيظوهم، وليوهموهم أنهم يتناجون بما يسوؤهم فيطول حزنهم.

- الذي يقولونه وهم يتناجون بينهم يوصف بأوصاف ثلاثة، جميعها قبيحٌ وباطلٌ، ينبئ عن خبث السريرة، وفساد الطوية: الإثم، وهو الذنب الذي يقترفونه، ويدعون بعضهم بعضا إليهِ؛ ثم العدوان، أي الظلم والتعدي على المسلمين، وهو ما يخططون له في خلواتهم؛ ثم معصية الرسول، أي مخالفتهم لأمره، واستهزاؤهم بحكمه، ومن ذلك أنه نهاهم عن النجوى، فعادوا لما نهوا عنه بقصد معصية الرسول ﷺ.

- معصية الرسول داخلة في الإثم والعدوان، وإنما أفردت بالذكر استعظاما لها ولعاقبتها.

- ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ خالفوا تحية الإسلام «السلام عليكم»، وجاءوا بتحيَّة فيها نزغٌ ودغَل، وهي قولهم: «السام عليكم»، والسام هو

الموت، وهم لولا جُبنهم لما احتاجوا إلى التورية والنفاق. وكان رسول الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يردُّ التحية بقوله: «وعليكم». حِلما منه وحكمة.

- ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾: هم يستعجلون العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، لكنَّ الله تعالى لا يستجيب لسخافاتهم، وإنما يجيبهم ملتفتًا عنهم إلى غيرهم بضمير الغائب: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ وهي قريبة منهم لو عقَلوا؛ وهم الآن بعد فنائهم وموتهم جميعهم فيها، يعاينون مقدماتها، ولو عادوا إلينا لأخبرونا بشرٍّ ما هم فيه.
- ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِيسَ الْمَصِيرُ﴾: أي نارُ جهنم كافيةٌ وجديرةٌ أن تردعهم، وذلك بأن يعذَّبوا بها، فينالوا جزاء إثمهم وعدوانهم ومعصيتهم الرسولَ ﷺ؛ ساء المصير مصيرُهم، وهو مصيرٌ شديد الوطء عليهم، لا يُطيقونه ولا يتحمَّلونه؛ وهو جزاءُ ما قالوا، وما عملوا.

التشغيل والتفعيل

- النجوى المحرَّمة شرعا هي التي تكون بين المُعادين للحقِّ، المحاربين لله تعالى ورسوله ﷺ، المناوئين للصالحين من عباد الله؛ ومثل هؤلاء موجودون في كلِّ

مكان؛ وثمة صيغٌ جديدةٌ من النجوى باعتمادِ وسائل التواصل (الهاتف، شبكات التواصل الاجتماعي...) ذلك أنَّ التناجي «بالإثم، والعدوان، ومعصية الرسول» ممَّا اشتهر عند بعض الناس، عبر هذه الوسائل المعاصرة.

- التشارك بين اثنين عبر وسائل التواصل الرقمية، والثالثُ معهم في المجلسِ، خارج دائرة نجواهم، وهو يتضرَّر بضحكاتهم ونظراتهم، بخاصَّة إذا كان من جيل كبير العمرِ، لا يعي ما يقع وما يقال؛ هذه نجوى من الشيطان، الضابطُ فيها أنها تحزن الذين آمنوا.

- في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها ردَّت على تحية الذين قالوا: «السام عليكم»، بقولها: «عليكم السام والذام واللعنة»؛ قال لها رسول الله ﷺ: «**يا عائشة، إنَّ الله لا يحبُّ الفاحش ولا المتفحِّش**»؛ فقالت: «أولم تسمع ما قالوا؟»، فقال: «أوَما سمعتِ أقول: وعليكم». نستفيد من الحديث حِلم رسول الله، والردَّ عليهم بالحكمة، وأن لا غفلة في الإسلام، وأهمية الحوار في أدق جزئيات الحياة.

- تحية الإسلام هي «السلام»، وهي نفسها عند الأنبياء السابقين، ومع الملائكة، ويوم القيامة، وحتى أصحاب القبور يحيَّوْن بها: «السلام عليكم أصحاب القبور...»،

ويحيِّي الصحابةُ الرسول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بما حياه به الله تعالى: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»؛ ولما مات صار المسلمون يحيُّونه بـ: «السلام على النبيء ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»؛ وحتى عند ذكر اسمه نصلِّي ونسلِّم عليه؛ فداه أرواحنا ومُهجنا.

من الفكر إلى الفعل

- نهانا الله تعالى عن النجوى، بجميع صيغها وأشكالها، ذلك أنَّها أذًى للمؤمنين، وللناس جميعا.
- يثيرنا معرفة «ما يتناجى به» اليومَ صنَّاع القرار في العالم، وما يصوغون من مخططات عدائية.
- التحية بصيغ مثل: «صباح الخير»، أو الصيغ المترجمة من اللغات الأجنبية، جميعها لا تحقق المراد من التحية بما أمر الله سبحانه، وهي من العادات السيئة التي يجب على المسلم أن يصلحها؛ بأن يلقي السلام أولا، ثم إذا شاء أضاف إليها ما شاء من التحية بأي صيغة كانت، ما دامت من حسن القول.
- مهما تظاهر الكافر والمشرك والمنافق بعدائه للدين، فهو في «نفسه» موقنٌ به، ينتظر لحظة المحاسبة، وهو يسمع صوتها الحق من فم فطرته.
- الخوف من عذاب الله يوم القيامة يؤسِّس للفعل والحركة، ولا يلغيهما كما يتوهَّم الغافلون.
- للقراءة «**الكلمات**» ضمن «**رسائل النور**» لبديع الزمان النورسي.

قال الله تعالى:

يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي
إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ 9

بذور المعنى

- ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: كان الخطاب في الآيتين السابقتين موجَّها إلى الرسول ﷺ، ثم هو في هذه الآية موجَّه إلى المؤمنين لإيمانهم، تعليمًا لهم؛ مستعملا أسلوب الالتفات البديع؛ مقرِّرا قاعدة خُلقية وإيمانية خطيرة في بناء المجتمع، وفي الحفاظ على شبكة نسيجه الاجتماعي سليمةً.

- أو أنَّ الخطاب موجَّه إلى المنافقين بما يدَّعونه لأنفسهم، كأنه يقول لهم: ما دمتم تخاطَبون بصفة الإيمان: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ﴿قُل لِّلْمُومِنِينَ﴾...

فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول.

- ﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾: أي لا ينبغي التناجي أصلاً، ولكن إن كان ولا بدَّ فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، شأن اليهود والكفار والمنافقين.

- ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ﴾: البرُّ كلمةٌ جامعة لكلِّ صفات الخير، كالتَّقوى والطَّاعة، والصِّلة والصِّدق، والصلاح والعطاء، والإيمان والإحسان؛ قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الصدق يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة**»؛ وقد شُرح معنى البرِّ في آية البرِّ، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرُّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ...﴾ الآية.

- ﴿وَالتَّقْوَىٰ﴾: التقوى من الوقاية، والوقاية هي فرطُ الصيانةِ؛ وهي شرعًا: خشيةُ الله تعالى، والخوف منه، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ وهي الورع والتنسُّك لله جَلَّجَلَالُهُ. قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾.

- ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: التزموا تقوى الله تعالى فيما تأتون وما تذرُون، فيما تقولون وما تفعلُون؛ ولا تحيدوا عن الحقِّ والصدقِ؛ والله تعالى إنما يُتقى لأنه أهلٌ للتقوى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ

الْمَغْفِرَةِ﴾؛ وكذلك يتَّقى لأنَّ مرجعكم إليه فيجازيكم الجزاء الأوفى؛ إن خيرًا فخيرًا، أو شرًّا فشرًّا؛ ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، ﴿وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

التشغيل والتفعيل

- التقوى هي المصدر الوحيد لكرامة الإنسان، كما يقررها القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾؛ قال الإمام الشافعي: «من لم تعزَّه التقوى، فلا عزَّ له».
- من كان حديثه بالبرِّ والتقوى، وانتفى أن يكون بالإثم والعدوان؛ قلَّت مناجاته؛ ذلك أنَّ كلامه مدعاةٌ للإظهار لا للإخفاء، ولن يجد حاجة إلى التناجي به. قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾.
- ما الحكمة من رسم «معصيت» بالتاء المفتوحة، عوض التاء المغلقة «معصية»؛ في هذه الآية والتي قبلها؟

من الفكر إلى الفعل

- كلُّ تخطيط يحمل ظلما وعدوانا لأحدٍ من الخلق، هو من المحرَّمات شرعا، وهذا يفرض وجوب التخطيط المقابل، بما يحقق العدل والخير للناس.
- من النجوى ما يرتفع إلى مستوى التخطيط الاستراتيجي، وهو ما فشل فيه المسلمون اليوم؛ واحترفه الغرب مع كثير من الجور والعدوان.
- شرُّ الأمور ما تضمَّن إفساد ذات البين، وخيرها ما عاد بإصلاح ذات البين؛ والنجوى المنهيُّ عنها مَفسدة كلها، والنجوى المأمور بها صلاح كلها.
- "ثلاثة لا يصلحُ العملُ إلا بهنَّ: التقوى، والنيَّة الحسنةُ، والإصابةُ.
- للقراءة: «**الإيمان والحياة**» ليوسف القرضاوي. و«**جندَ الله تخطيطا**» لسعيد حوى.

قال الله تعالى:

إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيُحْزِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْئًا اِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ 10

بذور المعنى

- ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾: النجوى المنهيُّ عنها من الشيطان، فهو المزيِّن لها، والداعي إليها؛ ولكنه لا يقهر على المعصية، فالعبد حرٌّ ومخيَّرٌ.
- ﴿لِيُحْزِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: صيغة الإحزان أنَّ الذين آمنوا يتوهمون أنَّ النجوى في نكبةٍ أصابتهم، أو أمر يتهدَّدهم؛ أو أنَّ المتناجين من المنافقين، وهم لا يعلمون عن نفاقهم شيئًا، فيُحزنهم فعل أصحابهم ومَن معهم، وتنتشر البلبلة في القلوب، وتؤثر على السلوك.
- ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْئًا﴾: الشيطان يزيِّن النجوى، أو يأمر

بها، والصواب أنَّ المؤمنين إذا علموا أنَّ هذا الحزن لا يضرُّهم إلاَّ بإذن الله زال عنهم حزنُهم؛ أمَّا إن استجاب أحدٌ للشيطان فمن محض إرادته، ومن منطلق حريته؛ فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه؛ ويوم القيامة يقول لمن اتبعه: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

- ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾: الضارُّ في الاستثناء هو ما قضاه الله لا تَنَاجيهم؛ لأنَّ الاستثناء منقطع وليس متصلا.
- ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ﴾: لا على غيره، ولا مع غيره؛ ومن يتوكَّل على الله لا يُخيب عملَه، ولا يبطل سعيَه، ولا يُطيل حزنه، ولا يُضيع أجره. والتوكل على الله مزيل لحزن المتوكِّلين؛ قال رسول الله ﷺ: «**من سرَّه أن يكون أقوى الناس فليتوكَّل على الله**».
- أثبتت الآيات طلاقة القدرة لله تعالى، فلا مشيئة ولا إرادة تعلو على قدرته تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾.

التشغيل والتفعيل

- قال رسول الله ﷺ: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان عن واحدٍ**» وفي رواية زيادة: «**حتى يختلطوا بالناس، فإنَّ**

ذلك يسوؤه (يُحزنه)».

- إذا كانت ثمة مصلحةٌ في كتمان السرِّ، في شأنٍ عامٍّ أو خاصٍّ، فلا مانع من التشاور بالنجوى والتكتُّم بها.
- من التناجي أن يتكلَّم اثنان بلغة لا يعلمها الثالث، أو يرمز في كلامه، أو يكتب إليه. ويضاف إليه: أو يهاتفه، أو يتبادلان الرسائل والنظرات... مما هو من مقتضيات العصر.
- النجوى تزيين من الشيطان للإنسانِ، وإذا كانت القلوبُ حاضرة، والتوكُّل صحيحًا، والنظر صائبًا، فلا تأثير، وإنما التأثير بالغٌ ونافذٌ على الضعفاء.
- عن الوليد بن عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه أوصني واجتهد لي، فقال أجلسوني، قال: «يا بني، إنك لن تطعَم طعمَ الإيمان، ولن تبلغ حقَّ حقيقة العلم بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه، فكيف لي أن أعلم ما خيرُ القدر وشرُّه؟ قال: تعلم أنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك».
- يقول القاضي الفراء: «والتعلُّق بالأسباب ليس من ضعف التوكُّل، وإنما هو بلاءٌ من الطبع» شريطة أن تكون أسبابًا مشروعة.

من الفكر إلى الفعل

- لا يملك أحدٌ أن يضرَّ أحدا أو ينفعه، إلاَّ أن يكون إلها واحدا قادرا قاهرا فوق عباده، وكلُّ ضرر من سواه لا يخرج عن إرادته سبحانه، وإنما هو سبب وواسطة.
- كلُّ ما يحزن الذين آمنوا فهو حرامٌ، قياسًا على النجوى؛ ولهذا صور كثيرة من واقعنا المعاصر مما يحسبه الناس هينا وهو عند الله عظيم.
- «على الله توكلنا» ليست مجرَّد كلمات تكال وتقال؛ وإنما هو موقف من الحياة ومن الناس ومن القدر؛ وهو الذي يمنح لحياة المؤمن معنى ووجهة.
- هل وجدنا حلاوة الإيمان في يومياتنا؟ أم أننا فقدناها؟
- للمطالعة «**كتاب التوكل**» أبو علي الفراء.

قال الله تعالى:

يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ 11

بذور المعنى

- ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ﴾: في قراءةٍ تفسَّحوا في المجالس؛ وفسَح له في المجلس إذا وسَّع له ليجلس؛ وتفسَّحوا في المجلس أي توسَّعوا؛ والمجلس مكانٌ فسيح أي واسع.
- اختلف في المجلس الذي أمر الله تعالى بالتفسُّح فيه، قيل هو مجلس النبيء ﷺ خاصَّة؛ ولذلك سببُ نزولٍ روي بصيغ مختلفة؛ وقيل هي مجالسُ القتال إذا اصطفُّوا للحرب. والصواب هو عموم المجالس، منها: مجلس العلم والقرآن، والذكر والوعظ والدعاء؛ قياسًا

بمجلس رسول الله ﷺ.

- الخطاب للذين آمنوا؛ لأنهم أهلٌ لأن يسمَعوا ويستجيبوا: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

- ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾: أي توسَّعوا وافتحوا في المكان، وافسحوا في المجالس لإخوانكم؛ ذلك أنَّ التفسُّح في المجلس من علامات التحابِّ بين المسلمين.

- سمَّى الجزاءَ فسحًا مُشاكلة، أو هو تشبيه التوسيع في الخير بالتوسع الحسِّي. والمراد يوسِّع الله لكم في رحمته، وفي منازلكم في الجنة، وفي قبوركم، وفي صدوركم، وفي رزقكم؛ الآية تجمع تلك المعاني كلِّها وتزيد.

- إذا نُسبَ الفعل إلى الله تعالى فهو في طلاقةِ القدرة، أنت تفسح على قدر طاقتك، والله يفسح لك على قدر طلاقة قدرته سبحانه.

- ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾: النشوز هو الخروج عن المعتاد، ونشزَ الشخصُ نهض وقام، وارتفع في المكان؛ فيا أيها الذين آمنوا إذا قال لكم رسول الله ﷺ: «**قوموا عن المجلس لحاجة دينية أو دنيوية**»، فقوموا؛ وكذا إذا أمركم بذلك مَن يقوم على أمر المسلمين، وينظم

شؤونكم فاستجيبوا.

- وقيل: إذا قيل لكم انشزوا وانهضوا عن بيت رسول الله ﷺ فارتفعوا؛ فإنَّ للنبيء حوائج ومصالح وواجبات: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَانِسِينَ لِحَدِيثٍ اِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُوذِي النَّبِيءَ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾.

- ويؤخذ من الآية التخفيف في زيارة أهلِ العلم، وأولي الأمر ممن يقوم على مصالح الناس؛ ممن له مهام ومسؤوليات كثيرة؛ فإنَّ في كثرة زيارتهم، والجلوس الطويل إليهم، مضيعةً لمهامهم ومصالحهم وأولوياتهم.

- ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ درجةً واحدةً، بالنصر والجنَّة وحسن الذكر ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ سواء في ذلك حضروا المجالس أو لم يحضروا؛ ولأنَّ أهل العلم عادة يُفسح لهم في المجالس، ويؤمَر غيرهم بالنشوز لهم؛ فبيَّن تعالى أنه إنما كان ذلك لما لهم من درجات عند الله تعالى في الدنيا؛ ولما يُنتظر منهم مِن نفع وعلم وتعليم.

- ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: هي بُشرى لمن امتثل الأمر، وتهديدٌ لمن لم يمتثل؛ أنَّ الله تعالى خبيرٌ بخفايا النفوس، وبما يكون في مجالسكم من حقٍّ أو باطلٍ، من خيرٍ أو شرٍّ، مما يرضي الله تعالى أو يُسخطه سبحانه،

جلَّ في مقامِه.

التشغيل والتفعيل

- من تمام رحمة الله تعالى أن علَّم المؤمنين آداب المجالس والنظام، ولهم أن يقيسوا عليه فيما استجدَّ لهم من أمر مَعاشهم ومعادهم.
- مما روي من آداب المجالس: تفسَّحوا في المجلس بضمٍّ ما انبسط من ثيابكم أو جسدكم، لا بانتقالٍ من موضعكم.
- لا يقيم أحدٌ أحدا عن مجلسه فيقيم فيه إلاَّ السيد والزوج والأب والأمُّ والأجداد؛ قال رسول الله ﷺ: «**لا يقيم الرجلُ الرجلَ عن مجلسه، ولكن تفسَّحوا وتوسَّعوا**».
- يؤمر بمغادرة المجلس من هوجِر، ومن هو في البراءة، ومن لا يستحقُّ الحضورَ في المجلس؛ ومن كان في حضوره ناقلاً الأسرارَ أو نمَّامًا أو مغتابًا.
- عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجمع الله تعالى العلماء يوم القيامة، فيقول: إني لم أجعل حكمتي في قلوبكم إلاَّ وأنا أريد بكم الخير، اذهبوا إلى الجنة، فقد غفرت لكم على ما كان منكم**».
- في الحديث الشريف: «**فضل العالم على العابد كفضل**

القمر ليلة البدر على الكواكب».

- كما أنَّ للعلماء رفعة عند الله يوم القيامة على سائر المؤمنين، فكذلك لهم رفعة في المجالس وفي المقام والاعتبار في الدنيا؛ قيل: «يحصل للعالم ما لا يحصل لغيره، فإنه يقتدى به في أقواله وأفعاله كلِّها؛ والأشهر أنه يقتدى بقوله لا بفعله» ضرورةً.
- القاعدة عامة، وهي: «وسِّع لأخيك يوسِّع الله لك» من حيث لا تدري.

من الفكر إلى الفعل

- أنت تفسح على قدر طاقتك، والله يفسح لك على قدر طلاقة قدرته سبحانه.
- ما لم ترفع أمة من شأن العلم فلا مكان لها تحت سماء الحضارة والتمكين.
- الإيمان يرفع العبد درجة واحدة، والعلم مع الإيمان يرفعه درجات؛ أمَّا العلم بلا إيمان فيحطُّ به دركات.
- مجالس العلم لها حُرمتها ولها نظامها، ولقد علَّمنا ربُّنا جَلَّجَلَالُهُ آداب تلك المجالس، لنأتمر بها، ونقيس عليها في تنظيم العلم والمعرفة.
- لا تقتصر المجالس على شكلٍ واحد، فقد تعني الجامعات، ومراكز البحث، ومراكز التفكير... وغيرها، مما هو من مختلف شكلا لا فحوى.
- للمطالعة: «**بهجة المَجالس وأنس المُجالس**» لابن عبد البر؛ وكتاب «**العلم والعالم: في نظرية العلم والإدراك**» لمحمد باباعمي، ضمن سلسلة «**خلاصة المعنى**».

قال الله تعالى:

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَالِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿12﴾﴾

بذور المعنى

- ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: نداءٌ آخر للمؤمنين تربيةً لهم وتأديبًا بأسلوب فيه التحبيبُ؛ وحكمٌ آخر بعد حكم المجالس بعامَّة، ومجالس رسول الله بخاصَّة؛ إذ صفةُ الإيمان أحبُّ صفةٍ وأعظمها، والمنادي هو ربُّ الجلال والإكرام.
- ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾: كان الحديث عن المناجاة عامَّة؛ وأمَّا هذه المناجاة فهي من نوعٍ خاصٍّ، أي هي عن مناجاة الرسول ﷺ؛ فجاء الحكم بتقديم صدقة بين يدي نجواهم؛ أي قبل

نجواهم بقليلٍ تصدَّقوا، وهي استعارة تمثيلية.

- هذه الصدقة شرعها الله تعالى على من يجد ما يتصدَّق به، وجعل وقتها وسببها هو وقت توجُّههم إلى مناجاة الرسول ﷺ؛ وكان المسلمون حريصين على لقاء الرسول حبًّا، وحريصين على سؤاله عن أمور دينهم؛ فشرع الله هذه الصدقة لنفع الفقراء نفعًا يوميًّا، وكان الفقراء يومئذ كثيرين في المدينة.

- ﴿صَدَقَةً﴾ هي الصدقة التي شُرعت قبل الزكاة، وليست هي الزكاة؛ وتسمَّى «صدقة المناجاة»؛ وقد عُمِل بها وجوبا لأيَّام، ثم نُسخت بالزكاة؛ وبقي حكمُ الندب قائمًا.

- الحكمةُ من هذه الصدقة لتكون نفس المؤمن أزكى حين ملاقاة الرسول ﷺ.

- وفيها تعليم للمسلمين أن لا يجلسوا للمناجاة، حتى وإن كانت مع رسول الله ﷺ، وحتى وإن كانت في أمور دينهم، إلاّ إذا كانت حركة الرزق تتَّقد، ودواليب العمل تدور، والعناية بالضعفاء سجيةً عندهم؛ ذلك أنَّ الصدقة التي يتقدمون بها لا يقبضها رسول الله لنفسه، ولكنه يقبضها لصالح الضعفاء من المسلمين.

- ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾: خيرٌ وأطهرُ على التفضيل، أي أخيرُ لكم، وأشدُّ خيرية، وأكثرُ طهرا؛ وهو شاملٌ

للمال والنفس والدين وغيرها.

- ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾: عَذَر الله تعالى العاجزين والفقراء، فإنهم لا يَتركون النجوى؛ لأنها في أمور دينهم؛ غير أنَّ العذر يقدَّر لوقته، و«الضرورة تقدَّر بقدرها»؛ فإذا زال الوصفُ زالت الضرورةُ، وعاد المأمور إلى حكم تقديم الصدقة بين يدي رسول الله ﷺ.
- ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ شبيهٌ بقوله تعالى في الكفارة ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ﴾، أي وجب استفراغُ الوسعِ، حتى يقول من بذل جهده: «لم أجد»؛ وليس مجرَّدُ توهُّم عدم الإيجاد بعذر ولا بمجزٍ.
- ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: الله تعالى نزَّل أوامره حسب طاقة عباده: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ﴾؛ فمن لم يجد مالا، أو صحَّة، أو جُهدا، أو ما به تمام الحكم؛ فإنَّ الله تعالى لا يُعنته، بل يغفر له، ويجزيه جزاء من وَجد، ويرفع عنه الحكم؛ ذلك أنه سبحانه «لا يكلِّف عباده إلاَّ بمقدور ومستطاع».

التشغيل والتفعيل

- من فوائد الآية تعظيم شأن سيدنا محمد ﷺ، وتعظيم شأن مناجاته، والقاعدة هي «إنَّ الإنسان إذا وجد شيئًا

بمشقَّة استعظمه، وإذا وجده بسهولة استحقره».

- وتعظيم مقام رسول الله ﷺ مما وجب على المسلمين في عهده، وبعده إلى يوم القيامة؛ إذ الواجب عليهم أن يجتهدوا فيه قدر استطاعتهم؛ ولعلَّ الصدقة اليوم لنصرته، ونشر فضائله من هذا القبيل.

- الوجه في الآية أنَّ الأغنياء كانوا يُكثرون من مناجاة النبي ﷺ، يُظهرون بذلك نوعا من التقرب إليه، والاختصاصِ به، وكان الفقراء منهم يحزنون بذلك وتنكسر قلوبهم، فأمِروا أن يتصدقوا بين يدي نجواهم على فقرائهم، بما فيها من ترطيب النفوس، وإثارة الرحمة والشفقة والمودة.

- تدخُل الآية في ضبط «البرنامج اليومي» لرسول الله ﷺ؛ وهو لخطورته تدخَّل الله تعالى في وضع معايير وضوابط مناجاته، والجلوس إليه، والإطعام عنده، والمسامرة... وكلّ ما من شأنه أن يلتهم وقته؛ ولو تُرك دون ضابط لوقع عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في حرجٍ شديدٍ، ولضاعت بالتبع حقوقُ الله، وحقوق العباد، وحقوق نفسه وأهله. وحاشاه أن يكون كذلك وهو النبي الكريم.

من الفكر إلى الفعل

- في الإمكان اليومَ مناجاة رسول الله ﷺ، وذلك بالجلوس في حضرته والاهتمام بحديثه، وبسيرته.
- من أعظم العبادات دفع عجلة الحياة، ونفع الخلق؛ ولذلك أُمِر الصحابة بتقديم صدقة بين يدي نجوى رسول الله ﷺ.
- الأمر إذا اتسع ضاق، وإذا ضاق اتسع؛ فمن لم يقدر على شيء رفع عنه، وإن قدر على الأقلِّ آتاه ولم يترك فعله كلية.
- طلب الأخيَرِ والأطهَر من كلِّ شيء من شيم المؤمنين.
- بدفع المال يمتحن إيمان الناس فإنَّ «المال محكُّ الدواعي».
- نأخذ من آداب مناجاة الرسول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ آداب مناجاة العلماء، وأولي الشأن، ممن هم في مقام محمود.
- للقراءة: «**البرنامج اليومي للرسول** ﷺ» من كتاب «**علم البرمجة الزمنية**» لمحمد باباعمي.

قال الله تعالى:

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿13﴾﴾

بذور المعنى

- أصل الإشفاق في كلام العرب الخوفُ والحذرُ، أو هو توقُّع حصولِ ما لا يبتغيه المرءُ؛ ومعنى ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ أخشيتم بتقديم الصدقة الفقرَ والفاقةَ؟ أبخلتم عن الصدقة مخافة الإقلال؟
- شقَّ على بعض الصحابة تقديمُ الصدقة فأمسكوا عن مناجاة رسول الله ﷺ، فوُضعت عنهم تخفيفًا ورحمة من الله تعالى؛ وأمروا بمناجاة رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي وإذ لم تقدِّموا

الصدقات، وقد تاب الله عليكم ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ذلك أنَّ هاتين الفريضتين لم يضعهما الله تعالى عنكم؛ وأنَّ طاعة الله ورسوله هي روح الدين وجوهرُه، وهي المقصد الأكبر لكل حكمٍ فقهي، ولكل تشريعٍ ربانيٍّ.

- الصلاة والزكاة وطاعة الله ورسوله مما لا يُتسامح فيهِ، وقد قيل لهم ذلك تربيةً لهم؛ حتى لا يظنُّوا أنهم كلَّما ثقل عليهم فعلٌ مما كلفوا به يُعفون منه بلا حدٍّ ولا ضابطٍ.

- قال بعض العلماء: هذا هو الحكم الوحيد في القرآن الكريم الذي نسخ قبل أن يُعمَل به؛ وذكر البعض أنه عُمل به، ولكن لوقت قصير محدود: عشرة أيام، أو يوم، أو ساعات. وروي عن الإمام علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لم يعمَل بهذه الآية غيري».

- ﴿وَاللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: في آية الظهار، وفي آية التفسُّح في المجلس كانت الفاصلة على صيغة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، وفي هذه الآية ﴿وَاللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، ما الفرق بينهما؟ وما الحكمة؟ يعلل صاحب «اللمسات البيانية» بقوله: «إذا كان [السياق] عن الإنسان أو على عمله يقدم عمله، وإذا لم يكن الكلام عن الإنسان أو كان الكلام عن الله أو عن الأمور القلبية

يقدم الخبرة» وهذه الآيات من سورة المجادلة تنقض هذا الذي سماه «قانونا»؛ وتبقى المسألة للبحث.

التشغيل والتفعيل

- في الآية توجيه إلى التخفيف حين يشقُّ الأمر على من نربِّيهم، بشرط أن لا يكون مما لا بدَّ منه؛ أمَّا ما لا بدَّ منه فلا يخفَّف ولا يوضَع، بل يُحمل عليه إلى أن يصير سجية.
- الواجب المحافظة على أصول الإيمان «طاعة الله ورسوله»، وعلى أصول العبادة «إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة»، وهذه المحافظة هي العلامة الفارقة بين المؤمن وغيره.
- من حكمة بقاء الآية تُتلى، رغم أنَّ العمل بها نسِخ، أن يلتزم المسلمون آداب المناجاة، وآداب المجالس؛ ولا يستصغروا أدبا من الآداب، مهما بدا غير ذي أهمية. ولا ينسخ الله حكم آية ويُبقى تلاوتها إلاَّ لحكمة عظيمة، قد ندركها وقد لا ندركها.
- لا يغيب عن بال المسلمين أنَّ الله الذي كلفهم خبير بأعمالهم، ففي وصايا الرسول ﷺ لأبي ذر الغفاري: «وأخلِص العمل فإنَّ الناقد بصير».

من الفكر إلى الفعل

- ليس للمؤمن أن يخاف الفقر، ما دام قد اتخذ الأسباب، واعتقد أنَّ الرزاق هو الله سبحانه.
- إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أوكد الواجبات التي تغطِّي ما عجز فيه المسلم، فلنحافظ عليهما ما حيينا.
- وجب التخفيف على من يشق عليه الأمر، ولكن من استطاعه وجب علينا حمله عليه، مع تعليمه وتربيته على معاني الصبر.
- ليس قدرا محتوما أن تبقى مقدرات الحياة أبد الدهر حكرا على غير المؤمنين، وأن تزيد للظالمين جورا وطغيانا.
- للقراءة: «**المال والحكم في الإسلام**» للقاضي الشهيد عبد القادر عوده.

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ
وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿14﴾

بذور المعنى

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم﴾: استفهام تعجُّبي استنكاريٌّ مما صدر من المنافقين حيالَ اليهود، الذين عادَوا اللهَ ورسولَه ممن غضِب الله عليهم وسخِط منهم؛ ذلك أنَّ المنافقين اتخذوهم أولياء يناصرونهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾.
- ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ أي إنَّ المنافقين ليسوا من المؤمنين ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي وليسوا من اليهود كذلك: ﴿مذبذبين

بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾.

- موالاة المنافقين لليهود في المدينة شكَّلت جبهةً ضدَّ المسلمين، ولا تزال كذلك إلى يوم القيامة؛ من هنا تأتي خطورةُ النفاق والمنافقين، ومن هنا يأتي وجوبُ اليقظة والقوة في صفِّ المسلمين.
- ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: يحلفون على الكذب، وهم يعلمون أنَّهم كاذبون، ويعلمون أنَّ ذلك حرامٌ، ويعلمون أنَّ الله تعالى يُطلع رسولَه الكريم على خلجات نفوسهم؛ ومع ذلك يتمادون في غيِّهم لفسادٍ في طبعهم، وللرّين الذي غشَّى قلوبهم، فأعماهم عن الحقِّ وهم يعلمون.
- العجيب أنَّ المنافقين يحلفون على الكذب في الدنيا، وسيحلفون على الكذب يوم القيامة ﴿يصرُّون على الحنثِ العظيم﴾، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾؛ غير أنَّ الذي ينتظرهم من عذاب شديدٍ يومئذٍ لم يحسبوا له حسابًا.

التشغيل والتفعيل

- التردُّد في الانتماء للمؤمنين، وفي إعلان هذا الانتماء؛

والتأرجحُ بينهم وبين أعدائهم حبًّا ونصرةً وموالاةً، كلُّ ذلك من صفات المنافقين؛ فليحذرها المؤمن تحت أيِّ مبرِّر كان.

- تولِّي غير المؤمنين يتلبَّس في عصرنا بأشكال كثيرة، لعلَّ أشدَّها سوءً التبعيةُ الفكرية، والولع بالغالب، والشُّحنة الشعورية لصالح الكافر ضدَّ المؤمن، والوقوع مصيدةً للمخططات الإعلامية المعادية لله ورسوله؛ ثم يستتبع ذلك نصرٌ لهم، وبغض للمسلمين وللمؤمنين... والمسلم الحقُّ حذر كلَّ الحذر من هذه الموالاة.

- قال رسول الله ﷺ: «**مثل المنافق مثل الشاة العايرة بين غنمين**». أي المتردِّدة لا تدري بمن تلحق، وهي صورة ذهنية ذات دلالة عميقة لمن نظر وتفكَّر.

- في علاقة المؤمن والمنافق بالقرآن الكريم، وانتفاعهما به، قال رسول الله ﷺ في حديث صحيح: «**مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجَّة ريحها طيب وطعمها طيب؛ ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو؛ ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مرٌّ؛ ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ريحها مرٌّ وطعمها مرٌّ**».

من الفكر إلى الفعل

- المسلم لا يوالي المنافقين ولا الكفار ولا المشركين.
- تجب اليقظة والقوة في صفوف المسلمين، ليواجهوا كيد أعدائهم.
- لا يجوز الحلف على الكذب، ولا يُكثر المسلم الحلف ولو كان صادقا.
- لا يتردَّد المسلم في إعلان الانتماء إلى صف المسلمين؛ لئلا يكون ذلك فتنة له ولهم.
- التبعية الفكرية، والولع بالغالب، ومعاونته على الظلم، ونصرته... من أكبر فتن العصر؛ فلنعمل على تجاوزها والخروج منها؛ فهذا من أعظم الجهاد.
- اقرأ نظرية ابن خلدون في «**المقدمة**» عن جدلية الغالب والمغلوب. وكتاب: «**جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج**» لمحمد الغزالي.

قال الله تعالى:

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ 15

بذور المعنى

- ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: عذابُ المنافقين أشدُّ وأعظم من عذاب الكافرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾؛ ومعيار الشدَّة عند الله تعالى يفوق كلَّ تصوُّر، ويتجاوز كلَّ معيار بشريٍّ، سبحانه إنه ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، ﴿شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾، ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾.
- ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ﴾ أي قبُح ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من إظهار الإيمان وإخفاء الكفر، ومن تولِّيهم لليهود على حساب المؤمنين، ومن حلفهم على الكذب؛ وغير ذلك من

صفات المنافقين مما هو مبيَّن في كلام الله تعالى، وفي سنة نبيه الكريم.

- وفعل المضارع ﴿يَعْمَلُونَ﴾ دالٌّ على تكرار ما يعملون من سوء، وما يأتون من سيئات، بخاصَّة في حقِّ النبيء ﷺ، من مثل فعل رؤوس النفاق عبد الله بن أبي، وعبد الله بن نبتل.
- ولقد روي أنَّ هذا العمل السيء الذي نزلت الآية تفضحه، هو فعل ابن نبتل، الذي كان يجالس النبيء ﷺ، ثم يرفع أخباره إلى اليهود؛ ويسبُّ النبيء عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإذا بلغ خبره، وأطلع الله تعالى نبيئَه به، أقسم أنه ما فعل: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

التشغيل والتفعيل

- ثمة فرق واضح بين «المعارضة» و«ظاهرة النفاق»؛ فالمعارضة موقفٌ إيجابيٌّ من الدولة المسلمة، غايتُها تصحيح مسارِ السلطة حين تنحرف، واقتراح البدائل حين تعجِز عن ذلك؛ أمَّا النفاق فدوره سلبيٌّ، وهو خيانة للأمَّة وانشقاقٌ عن صفها.
- من رحمة الله تعالى على عباده أن حذَّرهم من العذاب

الشديد، وهم في كامل قواهم العقلية والبدنية، قادرين على التوبة والإنابة والاستغفار؛ ومن عادة الجبابرة أنهم لا يمهلون مَن يعصيهم؛ لكنَّ الله الواحد القهار غلبت رحمتُه عذابَه.

- بين فاصلة الآية السابقة ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ وفاصلة هذه الآية ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ جناس مقلوب قلبَ بعضٍ؛ وفي المعنى ثمة تلازم بين العلم والعمل؛ فهذا من ذاك، وذاك من هذا.

- ورد وصف الشدَّة في القرآن الكريم اثنين وخمسين مرَّة بصيغة «فعيل» أي «شديد» أغلبها في وصف عذاب الله تعالى، ومصير الكافرين يوم القيامة؛ ويقابله في المعنى غالبا وصف المغفرة والرحمة، مثل قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

- يقول الشيخ محمد الغزالي: «وكلَّما توطدت سلطة المسلمين ورسُخت مكانتهم ازداد خصومهم المنافقون ضغناً عليهم وتربصاً بهم؛ وقد حاولوا تأييد اليهود عندما تأذنهم الرسول ﷺ بالجلاء؛ فلمَّا لم يوقف مدَّ الإسلامَ شيءٌ، ولم تهدَّه هزيمة، وأخذت القبائل العادية تختفي واحدة تلو أخرى، التحق أولئك المنافقون بصفوف المسلمين، ولم تنكشف نياتهم السوء إلاَّ على فلتات الألسنة ومزالق الطباع، فكانت سيرتهم تلك مثار فتنٍ شداد، تأذى منها رسول الله والمؤمنون شيئاً غير قليل».

من الفكر إلى الفعل

- من عرف قدر العذاب الذي أعدَّه الله للعاصي حاذرَ الوقوع في مضايق الكفر، ومخانق النفاق.
- النفاق أشد فتكا بالمسلمين من الكفر؛ ولذا كان عذاب المنافق عند الله أعظم؛ فليحذر المسلم صفات النفاق كلِّها.
- جازت المعارضة وإعلان الرأي المخالف، وحرم النفاق وإخفاء الكيد.
- ظاهرة النفاق تنخر عظام الأمة، وهي في هذا العصر تتشكل وتتلون بمظاهر عديدة؛ فلنكن على بينة من أمرنا.
- للقراءة: «**فقه السيرة**» لمحمد الغزالي. و«**المخانق والمضايق: بحثا عن نقطة الانعطاف**» محمد باباعمي.

قال الله تعالى:

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿16﴾﴾

بذور المعنى

- ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي وقاية وسترة من سلاحٍ وغيره؛ ومادة جنَّ تعني الستر والإخفاء في جميع اشتقاقاتها: الجن، الجنون، الجنين... كأنَّ المنافقين اتخذوا أيمانهم مجنًّا وترسًا يحتمون به كما يحتمي المقاتل خلف المجنِّ أو الدرع.
- الحلف والأيمان من وسائل الخداع التي يجيدها المنافقون، ويستترون خلفها.
- قال الإمام الطبري: «جعلوا حلفهم وأيمانهم جُنة يستجنُّون بها من القتل، ويدفعون بها عن أنفسهم

وأموالهم وذراريهم؛ وذلك أنهم إذا اطلع منهم على النفاق، حلفوا للمؤمنين بالله إنهم لمنهم»؛ والمؤمنون لا يسارعون في تكذيب الحالف حتى لا تكون فتنةٌ.

- ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صدُّوا غيرهم عن سبيل الله، فهم يتحمَّلون وزرهم ووزر من صدُّوهم؛ أو الفعل غير متعدٍّ، أي هم صدُّوا أنفسهم عن سبيل الله.
- إن انتفع المنافقون ببعض أعراض الدنيا بفعلهم وحلفهم على الكذب؛ فإنهم يوم القيامة من الخاسرين ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يذلُّهم ويخزيهم، ويُذيقهم مواطن الهلاك المُهين للكرامة، في الدنيا وفي الآخرة.

التشغيل والتفعيل

- لزم الحذر من جميع صفات المنافقين؛ ذلك أنَّ أهل النفاق جمع الله لهم كلَّ أنواع العذاب: الشديد، الأليم، المهين؛ وغضب الله عليهم، وهو خادعهم، ويمكر الله بهم...
- قد يكون النفاق ظاهرة صحية للمجتمع المسلم، حين يكون هذا المجتمع فطِنا، كما كان حال مجتمع المدينة في العهد النبويِّ وعهد الخلفاء الراشدين؛ وقد يتحوَّل إلى ظاهرة مرَضية خطيرة، أوان ضعف المسلمين،

وأسوء من ذلك أن يكون ظاهرة غالبةً على المجتمع، ويكون الإيمان الحقُّ نشازا واستثناء.

- لا ينبغي للمرء أن يكثر التأكيد للناس أنه «صادق في قوله»، «مخلص في عمله»... بخاصَّة إذا كان هذا التأكيد مصاحِبا لنفي الصدق والإخلاص عن الآخرين؛ وإنما الواجب أن تكون حال الإنسان أبلغ معبِّر عن سريرته وحقيقته.

من الفكر إلى الفعل

- من لم يحذر مواطن الهوان في الدنيا تجرع مرارة الهوان يوم القيامة.
- حين يكون الإيمان الحقُّ استثناء، والكفر عادة؛ يحلُّ بالأمة سخط الله، فلنجتهد في مواجهتها بكل الوسائل والطرق.
- ينبغي أن تكون حال الإنسان أبلغ معبِّر عن سريرته وحقيقته، وأعظم واعظ له حتى ينشرح قلبه للإيمان.
- عن عامر الشعبي قال: «من كذب فهو منافق»، وقال: «لا أدري أيهما أبعد غورا في النار: الكذب أو الشح؟» ومن استسهل الكذب أوشك أن يأتي المعاصي ولا يبالي.
- سبيل الله تعالى بيِّن واضح لا ينحرف عنه إلاَّ من أبى، قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**كلكم تدخلون الجنة إلاَّ من أبى**».
- للقراءة: «**صفة النفاق وذم المنافقين**» جعفر بن محمد الفريابي (القرن الثالث الهجري).

قال الله تعالى:

لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَادُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (17)

بذور المعنى

- ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَادُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا﴾: مناسبة ذكر الأموال والأولاد في سياق وصف حال النفاق وأهله؛ لأنَّ المنافقين غالبًا ما ينافقون للمصالح ولاستكثار المال، ولنفع الولد وإغنائه والاستنصار به.
- لن تنفع المنافقين أموالُهم ولا أولادهم يومَ القيامة، عند الله شيئا، ولن تدفع عنهم العذابَ المهين، ولا الخلود في النار.
- ﴿شَيْئًا﴾ ولو قليلا، كأن يخفِّف عنهم يومًا من العذاب أو ساعة، بله أن يُصرف عنهم، أو يُصرفوا عنه.

- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.
- ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ هم والنار أصحابٌ متلازمون؛ لأنهم مصاحبون لأسبابها في الدنيا، عاشقون للذنوب التي توقعهم فيها يوم اللقاء.
- ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ باقون فيها أبدًا، لا يفارقونها ولا تفارقهم؛ ولقد قالوا من قبل: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

التشغيل والتفعيل

- ما قد ينفع في تمويه الناس والتغرير بهم، لا ينفع في حقِّ الله تعالى؛ لأنه سبحانه ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، «لا تخفى عليه خافية»؛ فالخوف إذن يكون من الله تعالى لا من عباده.
- من صفات المنافق أنه يستخفي من الناس ولا يستخفي من الله؛ قال تعالى فاضحا لهم ومشنعا عليهم، في سورة النساء: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ

اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

- كان المنافقون من أهل الثراء في المدينة، وكان غِناهم مِدعاةً لإعراضهم؛ ذلك أنهم رأوا في الإسلام، وفي نبوة محمد ﷺ تهديدا لمكانتهم الاجتماعية، وكان عبد الله بن أبي بن سلول مهيأ لأن يولَّى على المدينة، فجاء الإسلام، وضاع حلُمه، فحمل الحقد والضغينة في قلبه، وسار بالنفاق والأذى والبلبلة بين الناس.

من الفكر إلى الفعل

- ما دامت الأموال والأولاد لا تغني عن الواحد شيئا، فلنعمل فيما يغني عنا عند الله شيئا.
- هو سبحانه ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، «**لا تخفى عليه خافية**»؛ فالخوف الحقيق والجدير يكون من الله تعالى لا من عباده.
- لا تقايض الحقَّ بالمال، ولا تبِع دينك بعرَض من الحياة الدنيا.
- ما أودع الله بين يديك من مال هو ماله، فاحرص أن تصرفه في مرضاته، ونصرة دينه.
- قال بلال بن سعد: «المنافق يقول ما يعرف، ويعمل بما ينكر».
- للمطالعة: «**أصول الإنفاق العام في الفكر المالي الإسلامي**» لغازي عناية.

قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿18﴾﴾

بذور المعنى

- ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾: عُقدت ألسنة المنافقين على الكذب والحلف باطلا، فهم كما كانوا يحلفون في الدنيا للمؤمنين، يحلفون لله تعالى يوم القيامة، وهذا منتهى الضَّلال.

- ﴿جَمِيعًا﴾ أي اليهود والمنافقون والمشركون، فهؤلاء كانوا يوالون أولئك، واليوم يحشرهم الله جميعا على صعيد واحد؛ والمرء يحشر مع من يحبُّ؛ والناس يحشرون بصفاتهم لا بموصوفاتهم، فمن كانت صفته الكذب حشر مع الكذابين، ومن كانت صفته الصدق

حشر مع الصديقين...

- ﴿وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾: يظنون أنهم على شيء ولو قليلٍ من الحقِّ والصواب. ويقال: «حسب الأمرَ هزلا»، أي ظنه واعتبره وهو واهمٌ فيما حسب؛ و«حسِب» من أفعال القلوب.
- مثلهم كمثل الذي يتحرك في الفراغ: لا شيء يستندون إليه إلاَّ حقيقة الهباء، ولا مجال لهم ولا مصير إلاَّ السقوط في الهاوية.
- ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ انتبِهوا إلى أنَّ هؤلاء هم الكاملون في الكذب؛ المخادعون لأنفسهم، وللناس، ولله، وللرسول. إذ لا أحد أكذب منهم.

التشغيل والتفعيل

- روي في الحديث الشريف: «**ثلاث هنَّ حقٌّ: لا يجعل الله من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له، ولا يتولَّى اللهَ عبدٌ فيوليه غيره، ولا يحبُّ رجل قوما إلاَّ حُشر معهم**».
- لا يمكن أن نستثني حبَّ الزعماء، واللاعبين، والمغنيين، والفسَّاق من أعداء الدين، من حكم الموالاة، فمن أحبَّ هؤلاء وهمْ على الضلال البعيد،

وكره المؤمنين وهم على الحقِّ المبين؛ حشره الله مع من أحبَّ.

- ﴿وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ كثيرةٌ هي الأفكار والمشاريع التي توصَف بهذا الوصف، يحسب أصحابها أنهم على شيءٍ، وهم في زعمهم هذا كاذبون؛ وهم مغرورون بكثرة المعجبين والأتباع، في حين أنَّ الكثرة لا تدل على الحقِّ، ولا تبرِّر له.

من الفكر إلى الفعل

- كم من إنسان «يَحسب (ويُحسب) أنه على شيء» وهو عند التحقيق «ليس على شيء»؛ مهما ملك من مال، أو جاه، أو عارض من عوارض الدنيا الزائل.
- ابحث اليوم عن «أغنياء العالم» في القرن الماضي وما قبله، ممن كان على ضلال؛ هل تجد منهم من أحد على قيد الحياة؟ وهل من ظلم منهم مرضيٌّ هنالك عند الله سبحانه؟ أم أنَّ سخط الله جَلَّجَلَالُهُ حاق به؟
- الكذب له أكثر من وجه وصفة، ولا يقدر إنسان حتى ولو استغفل جميع البشر أن يخدع الله سبحانه.
- المرء يحشر مع من يحبُّ؛ فلينظر أحدنا من يصاحب ليحشر معه يوم القيامة.
- «الكثرة لا تدلُّ على الخير غالبا» قاعدة كلية.
- طالع «**الاغتيال الاقتصادي للأمم**» حول «**قراصنة العالم**» لجون بركنز.

قال الله تعالى:

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿19﴾

بذور المعنى

- ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي غلبهم واستولى عليهم، وقويَ عليهم وأحاط بهم.
- غلبة الشيطان واستحواذُه لا تكون بالقهر ولكن بالوسوسة والتزيين؛ وهي غلبةٌ على العُصاة، أمَّا المؤمنون فليس له عليهم سلطانٌ.
- ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ﴾: إنساء ذكر الله إجراءٌ شيطانيٌّ، وهو مقدِّمة للمعصيةِ، أمَّا مَن حرص على ذكر الله، فهو يهدم ما يبني الشيطان من دسائس ووساوس.

- ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾: الحزب كلُّ جماعةٍ تمالؤوا على رأيٍ، واجتمعوا عليه، يخدمونه ويدعُون الناس إليه.
- بمنطق الأسباب، وبمنطق الإيمان، يكون حزب الشيطان ضعيفًا، مغلوبًا، خاسرًا، خاسئًا؛ إلاَّ أن يتغير المنطق، ويمكِّن الناسُ للشيطان في فكرهم وفعلهم، ويستجيبوا لإغرائه وإغوائه؛ هنالك فقط يُغلبون ويُنتصر عليهم.
- ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: عدولٌ عن التقرير إلى الاستفتاح للتنبيه إلى أهمية المضمون؛ ولتحريك القريحة والذهن للاعتناء بما ذكر؛ والخسارة في الآية دنيوية وأخروية، حتى وإن بدا أنَّ حزب الشيطان قد غلب في ظاهر الحياة؛ إلاَّ أنَّ ذلك تقلُّبٌ منهم إلى حين: ﴿وَلاَ تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴾، ﴿فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ﴾.

التشغيل والتفعيل

- إذا طاف عليك طائف من الشيطان «تذكَّر الله، واذكره ذكرا كثيرا»، فإنك بذلك ستحطِّم مخطَّطه وتبيدُ عملَه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

- يتسلط الشيطان على قلوب حزبه فلا يهتدون إلى الحقِّ، وعلى أعيُنهم فلا يرونه، وعلى آذانهم فلا يسمعونه، وعلى ألسنتهم فلا ينطقون به، وعلى جوارحهم فلا تنشط له.
- ذكرُ الله الذي يُبعد الشيطان: هو تذكُّر عظمته سبحانه، وتقديره حقَّ قدره، واستحضار فضله ونعمته، والخشية من عقابه وسخطه، والرجاء في مغفرته ومثوبته.
- تحسَّسْ قلبك وانظر: هل تذكر الله، وتجعله في المقام الأوَّل، في جميع أعمالك؟ أم أنك تغفل عنه وتنساه، وتأتي ما تأتي، وتذر ما تذر، بعيدا عن اعتبار رضاه وسخطه؟
- استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يكلِّمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته؛ فلمَّا استأذن عمر بن الخطاب قمن فبادرن الحجابَ؛ فأذن له رسول الله ﷺ؛ فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك؛ فقال عمر: «أضحك الله سنك يا رسول الله». فقال النبي ﷺ: «**عجبت من هؤلاء اللاتي كنَّ عندي فلمَّا سمعن صوتك ابتدرن الحجاب**». فقال عمر: «فأنت أحقُّ أن يهبن يا رسول الله» ثم قال عمر: «يا عدوّات أنفسهن، أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ؟» فقلن: «نعم، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ». فقال

رسول الله ﷺ: «**إيهًا يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجًّا قطُّ إلاَّ سلك فجًّا غير فجِّك**».

من الفكر إلى الفعل

- ما دام الشيطان لا يستولي على الطائع، وإنما سلطانه على العاصي؛ فلنحرص على الطاعة إرغاما له.
- تذكَّر عظمته سبحانه، وقدِّره حقَّ قدره، واذكر فضله ونعمته عليك، واخش منه عقابه وسخطه...
- تحسَّس قلبك وانظر: هل تذكر الله، وتجعله في المقام الأوَّل؛ أم أنك خلاف ذلك.
- حزب الشيطان، وأولياء الشيطان، هم الخاسرون؛ مهما بدا أنهم هم المتحكمون، وهم النافذون؛ فما ذلك إلا إمهال لهم.
- الانتماء إلى حزب الله سبحانه ليس بطاقة انخراطٍ، أو عنوانا كبيرًا، أو مجرد ادعاء؛ إنما هو جهاد واجتهاد، لا يقدر عليه إلا ذو حظ عظيم.
- للقراءة: «**مسيرة الصحوة الإسلامية**» و«**تمرد على الممنوع: نقد الصمت والبوح بالمسكوت عنه**» راشد الغنوشي.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢١﴾

بذور المعنى

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي يجعلون أنفسهم في جانبٍ وحَدٍّ، والله ورسوله في جانبٍ وحَدٍّ آخر؛ فهم يعادون ويشاقُّون اللهَ ورسوله؛ وقد جاءت الآية في أوائل السورة بذات العبارة مع إضافة ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.
- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ الأذلُّ اسمُ تفضيلٍ، وهم معدودون في زمرة أذلِّ من كلِّ ذليلٍ. وهم في الأذلِّين لأنَّ الغلبة لله ورسوله لا محالة؛ وهم بذلك مُهانون في الدنيا، ولهم عذاب مهين في الآخرة؛ فمَواطن الذل والهوان

قدرُهم ونصيبُهم، لِما اجترحوا من إثم ومحادَّة لله ورسوله.

- ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيَ﴾ أي حَكم وقضى؛ والكتابة تعني تسجيل شيءٍ تسجيلا يضمن له البقاء؛ أو كتب بمعنى أثبت في اللوح المحفوظ؛ أو كتب مجازا لا حقيقةً؛ والله أعلم بذلك.

- الغلبة لله؛ لأنه قويٌّ بذاته سبحانه، والغلبة لرسله؛ بما منحهم من توفيقه ومعيته وقدرته، ولأنهم عباده وسفراؤه إلى خلقه، فلا يُسلِمهم ولا يتخلَّى عنهم: ﴿ما ودَّعك ربُّك وما قلى﴾. المراد بالغلبة ما يعمُّ الغلبة بالحجَّة، والسيف، والانتقام، والتمكين، والظهور. والقاعدة الكلية أنَّ «غلبة الرسل عليهم السلام من غلبة الله جَلَّجَلَالُهُ».

- ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾: تعليلٌ لما مرَّ من غلبة الله ورسوله؛ فقوة الله تعالى بطشُه وجبروته وقهرُه وانتقامُه: ﴿إنَّ القوَّة لله جميعًا﴾؛ وعزة الله تعالى من أُحَديته وصمدانيته ومطلق قدرته ومشيئته: ﴿إنَّ العزَّة لله جميعًا﴾.

التشغيل والتفعيل

- كلُّ من انفصم عن الله عَزَّوَجَلَّ، وعن رسوله ﷺ هو في ذلٍّ وهوان؛ حتى وإن بدا للخلق أنَّه ذا عزَّة ومكانة.
- في دعاء القنوت المروي عن الحسن بن عليٍّ عن رسول الله ﷺ: «**اللهمَّ اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولَّني فيمن تولَّيت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شرَّ ما قضيت؛ فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذلُّ من والَيت، ولا يعزُّ ما عاديت؛ تباركت ربنا وتعاليت**».
- من استهان بالدين انخرط في سلك الأذلِّين؛ والاستهانةُ بالدين فكريًّا وباسم العلم من شأن الكثير من المتعالمين في هذا العصر، تحت مسميات كثيرة، وبمبررات لا حصر لها.
- المؤمن واثق في عهد الله تعالى، وفي أنَّ الغلبة تكون لله ولرسله؛ فهذا من صلبِ إيمانه، ومن روح يقينه؛ وهو يفكر ويعمل بناء على هذا ولا يحيد.
- لا يجوز الشكُّ في الحقِّ مهما بدت الأيام حالكاتٍ، ومهما بدا أنَّ المسلمين قد غُلبوا وذلوا؛ كما هو الحال اليومَ.

لو زالت كلُّ مقدَّرات الأمة، ولو شردت جميع أطيافها، ولو أبيدت جميع أركانها؛ لوجب أن يبقى الإيمان راسخًا في القلوب، فهو البذرة التي تحيي الموات، وهي النقطة التي منها المنطلق إلى الآفاق الرحيبة للنصرة والتمكين.

من الفكر إلى الفعل

- الانفصام عن الله ورسوله ذلٌّ، والارتباط بهما عزٌّ؛ فلا تخدعُنا المظاهر.
- يا ربِّ «**إنه لا يذلُّ من والَيت، ولا يعزُّ ما عاديت؛ تباركت ربنا وتعاليت**».
- الغلبة لله ورسله في كلِّ حال؛ والقاعدة هي ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلَادِ﴾؛ ولكن هذا يفرض على جميع المسلمين مجاهدتهم، والعمل على أن ينصروا عليهم.
- المؤمن واثق في عهد الله ووعده، وفي أنَّ الغلبة لله ورسوله، ناصرا لهذا السبيل، لا يبيد ولا يحيد.
- لا يجوز الشكُّ في الحقِّ مهما بدت الأيام مظلمة، ومن فعل كان من القانطين؛ فيجب إبقاء بذرة الإيمان حية راسخة في القلوب.

قال الله تعالى:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَآءَهُمُ أَوَ ابْنَآءَهُمُ أَوِ اِخْوَانَهُمُ أَوْ
عَشِيرَتَهُمُ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ
مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ
اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ 22

بذور المعنى

- ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَآدُّونَ﴾: الآية في النهي عن موادَّة الكفَّار المحاربين لله ورسوله؛ وتشمل موادَّة السلطان الجائر الموحِّد؛ لأنه بجوره ممن حادَّ الله ورسولَه؛ ولا ريب أنَّ الإيمان وموادَّة المنافقين والكفار نقيضان لا يلتقيان.
- ﴿حَآدَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ جعل نفسه في حدٍّ وجانبٍ، واللهَ

والرسول في حدٍّ وجانب آخر، فحرَم نفسه من معية الله ورسوله ﷺ؛ والسورة في الآيات السابقة عرَّفت الذين يحادُّون الله ورسوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾؛ ثم جاءت هذه الآية لتنهى عن موالاة هؤلاء.

- ﴿وَلَوْ كَانُوٓا ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ المراد مطلق الأقارب؛ وقدَّم الآباء لوجوب طاعتهم وبرِّهم على الأبناء، ثم ثلَّث بالإخوان؛ وأخيرا العشيرة التي هي الناصرة لمن هو منها.

- ينبغي التفريق بين الموالاة والمودَّة وبين مصاحبة الوالدَين، ولو كانوا على غير دين المرء، لأمر القرآن الكريم بذلك: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾. فالمودَّة قلبيةٌّ وهي لا تجوز للمنافق والكافر، والموالاة سياسية ومناصرةٌ حُكمية، وهي كذلك تحرم على المؤمن لغيره؛ أمَّا الصُّحبة فخُلقية، وهي للمؤمن والكافر على السواء؛ فقد تبغض المرء فتصحبه وتحسن إليه، لسبب ما: ﴿وقولوا للناس حُسنا﴾.

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أي ثبته وركَّزه، وبالكتاب يرسخ الشيءُ، وبالكتابة يوثَّق مُلك شيء لأحد؛ وكأنَّ الإيمان صار ملكا لهم، وحقَّ لهم أن يملَّكوه، فكتبه الله تعالى في قلوبهم، ليكون مرشدا

لهم في الدنيا، وشاهدا لهم يوم القيامة.

- ومن جنح إلى منحرف عن دينه، أو داهن مبتدعا في عهدٍ، أو والى عدوًّا لله ورسوله، أو نصر ظالما معتديا؛ نزع الله نور التوحيد من قلبه؛ بموجب معنى الآية.

- ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ الروح مطلقًا: ما به كمال نوع الشيء، من عمل أو غيره. والروح نور يقذفه الله تعالى في قلب من يشاء، تحصل به الطمأنينة والتحقيق، فإنه من لم يكن له ذلك النور كميِّت لا روح له؛ وقد يكون معنى الروح «القرآن» لعلاقة الشبه.

- والروح جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والروح كذلك هو الإيمان الذي هو روح الحياة وسببها، والروح هو النصر والنصرة لأنه بها يحيى أمر المسلمين.

- ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾: هذه نعمة أخرى، وهدية أغدقها الله تعالى على المؤمنين الموفَّين، الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا صالحا، ولم يوالوا من حادَّ الله ورسوله؛ وهي وعدُ الله تعالى أن يدخلهم جناتٍ، لا جنة واحدة؛ تجري من تحتها الأنهار، على الحقيقة، وعلى الكناية بالخضرة والجمال ودوام النعمة.

- خالدين فيها أبدا، لا يخرجون منها ولا يفنون، ولا

تنقضي هي ولا هم ينتهون؛ والخلود والأبدية من الأبعاد الزمنية التي لا يستوعبها العقل البشري إلاَّ قليلا، وهو غالبا يربطها باللانهاية في الرياضيات، ولكن شتان بين تصور عقلي وحقيقة كونية.

- ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾: وهي كرامة من الله تعالى وتكرُّم؛ فالرضا أعظمُ النعم وأجلها، وأعلى المراتب وأشرفها؛ وهم بذلك قد رضوا عن الله، ورضوا بما آلوا إليه من نعيم مقيم، ولقد قيل لهم يوم انتقلوا إلى رحمة ربهم: ﴿يَآ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾.

- ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلآَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وحدهم لا غيرهم في مقابل حزب الشيطان؛ وفي نسبتهم إلى الله تشريفٌ وإشارةٌ إلى أنه ناصرُهم، وراحمهم، ولقد قال من قبلُ: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ﴾؛ وفيه كذلك معنى أنهم إنما تحزَّبوا واجتمعوا فيما يرضي الله، ولأجل إرضاء الله، لا لغرض آخر، ولا لمقصد وغاية أدنى من ذلك.

- والفلاح في الآية استبقاء نعيم الحياة الأخرى، والفلاحة في الدنيا عمل لاستبقاء الحياة المادية.

- قيل نزلت الآية في حاطب بن أبي بلتعة، إذ كاتَبَ أهل مكَّة بأنَّ رسول الله ﷺ يستعدُّ لفتح مكَّة، فكشف الله

أمره لرسوله، وتاب حاطبٌ فتاب الله عليه. لأنه ممن شهد بدرا قبل ذلك.

التشغيل والتفعيل

- في الحديث القدسي الشريف: «**ورحمتي وجلالي لا ينال رحمتي من لم يوال أوليائي، ويعادي أعدائي**».
- في حديث ضعفه أهل التخريج لسنده؛ ولكنَّ معناه يصحُّ متنًا، بما يسنُده من آيات وأحاديث، قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ لا تجعل لفاجر ولا فاسق عليَّ يدا ولا نعمة، فيودُّه قلبي؛ فإني وجدت فيما أوحي إليَّ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُومِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللهَ وَرَسُولَهُ...﴾».
- يجب أن نفرِّق بوضوح بين الموالاة والمودَّة، وبين المواثيق التي أمر بها الشارع، من مثل ميثاق الزوجية، وميثاق العهد، وميثاق المسالمة... وغيرها.
- العاقل يقارن بين الحزبين: حزب الله، وحزب الشيطان؛ يختار المفلح ويهجر الخاسر؛ فالنصرة بين المسلمين واجبة على كلِّ مسلم بما أوتي من قوَّة ومن مَلكة: ﴿وَالْمُومِنُونَ وَالْمُومِنَاتُ بَعْضُهُمُۥ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.
- المناسبة عجيبة بين مفتتح السورة بأمر خولة بنت

ثعلبة، وزوجها أوس بن الصامت، في شأن الظهار؛ ثم تاب الله عليهما؛ واختتام السورة بقصة حاطب بن أبي بلتعة، في موالاة الكفار، ثم تاب الله عليه؛ نسأل الله تعالى أن يتوب علينا ويغفر لنا، كما تاب عليهم وغفر لهم.

من الفكر إلى الفعل

- لا يلتقي الإيمان وموالاة المنافقين والكفار في قلب واحد.
- ينبغي التفريق بين الموالاة والمودَّة وبين مصاحبة الوالدين، ولو كانوا على غير دين المرء.
- «اللهمَّ لا تجعل لفاجر ولا فاسق عليَّ يدا ولا نعمة، فيودُّه قلبي» اللهم بغّض إلينا الشرك والكفر والنفاق، والمعاصي ما ظهر منها وما بطن.
- من أشد أنواع الابتلاء الحاجةُ إلى من لا يخاف الله ورسوله؛ وعداوة من هو على الإيمان.
- العاقل يقارن بين الحزبين: حزب الله، وحزب الشيطان؛ ثم يكون مع المفلح، ويهجر الخاسر.
- للقراءة: «**التخصيص في الولاية والبراءة**» للكندي أبي بكر أحمد. و«**ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية**» لسعيد رمضان البوطي.

رحمه الله

فهرس الآيات

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ...﴾ 20
﴿الَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنكُم...﴾ 26
﴿وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ...﴾ 32
﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ...﴾ 37
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ...﴾ 42
﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا...﴾ 47
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ...﴾ 52
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ...﴾ 57
﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ...﴾ 63
﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ...﴾ 67
﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا ...﴾ 71
﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ...﴾ 77
﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ...﴾ 82
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا...﴾ 86
﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا...﴾ 90
﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا...﴾ 94
﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ...﴾ 98
﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ...﴾ 102
﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ...﴾ 106
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ...﴾ 111
﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ...﴾ 116